

فِي رِجَالِ السَّيِّدَةِ النَّبَوِيَّةِ

العهد المكي

بقلم
الدكتور أحمد محمد عيسى



في رياض السيرة النبوية العهد المكي

بقلم
الدكتور أحمد محمد عيسى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ؛
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ..

فأقدم هذا الكتاب إلى العالم الإسلامي ، لأضيف به إلى المكتبة
الإسلامية بعض الواجب علينا تجاه أشرف سيرة في الوجود وهي سيرة
سيدنا محمد بن عبد الله (ﷺ) مبتدئاً بالعهد المكي . مدعماً ما أقدمه
بالأدلة من كتاب «الله» تعالى ، وسنة رسوله (ﷺ) ، حتى يتضح
للقارئ المثل الأعلى الذي يجب عليه أن يقتدى به ، فقد أمرنا «الله»
تعالى أن نقتدى برسوله (ﷺ) وجعل لنا فيه الأسوة الحسنة :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١)

وقد ختم «الله» تعالى به جميع الأنبياء والمرسلين ، وختم بالكتاب الذي
أنزل عليه - وهو القرآن الكريم - جميع الكتب السماوية ، وبشريعته
جميع الشرائع ، وبعثه إلى الناس كافة ، وجعل الرحمة جوهر رسالته ،
حيث قال سبحانه وتعالى :

- ٤ -

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧)

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنَا بِهَذَا الْكِتَابِ كُلَّ قَارِئٍ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

المؤلف

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

خَصَائِصُ وَمُمَيِّزَاتُ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَمَصَادِرُهَا

للسيرة النبوية خصائص ومميزات ، أبرزها وأهمها : أنها تعطى صورة متجسدة للحياة الإسلامية متمثلة في أشرف خلق «الله» وهو سيدنا محمد (ﷺ) الذى أمرنا «الله» تعالى أن نقتدى به في قوله جل شأنه :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾^(١)

فاذا درس الإنسان أحكام الإسلام وقواعده الفقهية ، ومسائل العقيدة وكتاب ربه تعالى وسنة نبيه (ﷺ) وغير ذلك من العلوم والمعارف ، والقواعد والمبادئ ، والعبادات والمعاملات ، إذا درس كل ذلك ، فهو بحاجة إلى تطبيق ما درسه عملياً ، وتجسيد كل ذلك حياة وحركة ، وتطبيقاً وسلوكاً ، فبرى تلك القواعد والمبادئ والأحكام والأخلاق واقعاً ملموساً محسوساً متمثلاً في الرعيل الأول بعد أن درسه وقرأه مبادئ ودروساً في الذهن .

● والسيرة النبوية العطرة تطلع قارئها على عظمة الرسول الكريم (ﷺ) الذى أيده «الله» تعالى بالوحي والمعجزات ، وبآيات البينات ، فلم يكن (ﷺ) مجرد قائد عبقرى أو مجرد بشر عظيم

كسائر العظماء ، وإنما كان (ﷺ) بشراً يُوحى إليه ، كما قال
«الله» تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾^(١) ..

بل إن «الله» تعالى وصفه بصفتين هما من صفات «الله» تعالى
وأسمائه ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٢) (١٢٨)

● وفي السيرة أيضاً زاد رُوحى وعلمى يُسرُّ المراد من الكتاب
العزیز بتوضیح المواقع التاريخية والأحداث والمواقف التي عايشها
رسول الله (ﷺ) .

● كما أنها تضيف إلى المعارف الإنسانية والعلوم الإسلامية ، والثقافة
الدينية أعظم رصيد في كل مناحى الحياة الدينية والاجتماعية
والأخلاقية والتربوية والسياسية ، وهذا كله يثرى التراث الديني
والمعارف لدى الدعاة والمصلحين والمربين ، وفي رياض السيرة
النبوية ، يرى ولي الأمر ، والحاكم القدوة المثلى في الحكم وسياسة
الأمر ، ويرى الداعية الإسلامي المنهج الأمثل في الدعوة إلى «الله»

(١) الكهف : ١١٠ . (٢) التوبة : ١٢٨ .

بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويرى الزوج الحياة الزوجية المثلى ، ويرى الأب الدقة فى تحقيق الواجبات والحقوق والمواءمة بين العاطفة الجياشة والحزم فى تربية الأبناء ، ويرى القائد العسكرى الثقافة العسكرية والقيادة الماهرة ، وهكذا فى كل مجال من مجالات الحياة تشرق السيرة النبوية بالمثاليات الرائدة والفريدة .

ومن أجل هذا كله وعى سلفنا قيمة السيرة النبوية فى بناء جيل صالح عظيم فكانوا يتدارسونها ، بل ويحفظونها ، ويلقنونها لأبنائهم وأطفالهم كما يحفظونهم القرآن الكريم . عن زين العابدين على بن الحسن (رضى الله عنهما) قال : كنا نعلم مغازى رسول الله (ﷺ) كما نعلم السورة من القرآن .

ويقول الإمام الزهرى : فى علم السيرة علم الدنيا والآخرة ، وروى إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه) قال : كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول : يا بَنِيَّ هذه شرف آبائكم فلا تضيّعوا ذكرها^(١) .

وأما عن مصادر السيرة النبوية أو مراجع أحداثها ووقائعها فأول تلك المصادر : كتاب «الله» تعالى ، فقد جاءت مشاهد كثيرة وغزوات وأحداث وغير ذلك على سبيل الإجمال .

(١) السيرة الحلبية ، شرح المواهب ، السيرة النبوية د . محمد أبو شهبة .

وثانى هذه المصادر : السُّنَّة النبوية المطهرة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وقد دُوِّنت بأدق طرق النقل والتدوين .

ثم يلى ذلك : المراجع الأصيل في السيرة النبوية منذ عهد التابعين الذين تلقفوا سيرة رسول الله (ﷺ) بعناية فائقة مثل : عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري ، ثم ظهر من المصنفين في السيرة محمد ابن إسحاق المتوفى عام ١٥٢ هـ ، ثم ظهرت طبقة أخرى مثل الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، ومحمد بن سعد - صاحب الطبقات الكبرى - المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، ثم ابن هشام ، ثم كثر التصنيف بعد ذلك . ويجدر بنا أن نذكر مقالة الفيلسوف الإنجليزى الذى شهد بعظمة هذا الرسول (ﷺ) ، وكيف استضاءت الدنيا به ، وارتقى أتباعه وعزُّوا بفضل ما جاءهم به من دين .. قال فى كتاب الأبطال : « قوم يضربون فى الصحراء عدة قرون لا يؤبه لهم ، فلما جاءهم النبىُّ العربىُّ أصبحوا قِبْلَةَ الأنظارِ فى العلوم والفرقان ، وكثروا بعد قلة ، وعزُّوا بعد ذلة ، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم » .

عموم الرسالة وخلودها

لقد أرسل «الله» تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين ، بالرسالة العامة الخالدة ، وختم به جميع رسله وأنبيائه ، قال «الله» تعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤١ ﴾^(١)

وقال (ﷺ) : مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بُنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »
(متفق عليه) .

ومعلوم أن دعوة الأنبياء جميعا واحدة فيما يتصل بجانب العقيدة ؛ لأنهم جميعا ، يدعون إلى عبادة إله واحد ، لا شريك له . فجميع الرسل والأنبياء ، يدعون إلى توحيد «الله» تعالى ، وتنزيهه عما لا يليق بذاته العلية ، وكل الأنبياء يتفقون فى العقيدة من لدن آدم (عليه السلام) إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) ، وكانوا

(١) الأحزاب : ٤١ .

جميعاً يسرون وفق بعثة «الله» لهم ، ووحيه ، فيصدق اللاحق منهم السابق ، ويشر السابق ببعثة اللاحق .

وهكذا اتفقوا جميعاً في أصول العقيدة ، توحيداً «الله» وتنزيهاً له ، وإيماناً باليوم الآخر ، وما فيه من حساب وثواب أو عقاب ، وجنة أو نار .. إلى غير ذلك من الأمور .. وما شرعه من الدين للرسالة الخاتمة هو ما وصّى به الأنبياء السابقين كما قال تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾^(١)

وإذا كانت دعوات الرسل السابقين حتى خاتمهم سيدنا محمد (ﷺ) كلها قد اتحدت واتفقت ، في جانب العقيدة .. فإنها بالنسبة إلى جانب التشريع وبيان الأحكام ، قد اختلفت ، كمّاً وكيفاً ، ما بين كل نبيٍّ وآخر ، فإن التشريع يستهدف صالح الدنيا والآخرة ، وللتطور واختلاف الأمم والشعوب وتغيير الحياة أكبر الأثر . فلا بد أن تتوخى كل شريعة ما يوائم أمتها وما يتفق مع زمنها وأهلها ، لا سيما وأن كل شريعة من الشرائع السابقة كانت خاصة ، فكانت الأحكام التشريعية لها خاصة ، فلم تأخذ صفة العموم ، لأن الشريعة

(١) الشورى : ١٣ .

السابقة لم تكن عامة للناس .. فموسى (عليه السلام)، بعثه «الله» تعالى إلى بنى إسرائيل ، وكانت شريعتهم شديدة قائمة على العزائم ، فلما جاء عيسى (عليه السلام) جاء بشرية أيسر ، قال «الله» تعالى على لسان عيسى (عليه السلام) - مخاطبا بنى إسرائيل :

﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
 وَأُخَيِّ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
 وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
 هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

وكانت كل شريعة تنسخ ما قبلها إلا إذا ورد تأييد من الشريعة المتأخرة لبعض ما في السابقة ، أو أن يسكت التشريع اللاحق .

هذا فيما يتصل بجانب التشريعات أما العقيدة فهي واحدة وأما الدين فواحد لا اختلاف فيه :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾^(١)

وكانت الشرائع السابقة خاصة في الزمان وفي المكان ، حيث كانت الحياة البشرية تتقلب في أطوار مختلفة حتى إذا ما بلغت الرشد العقلي ، ونمت واكتملت قضت حكمة العزيز الحكيم أن يرسل رسوله محمداً (ﷺ) بالشرعة العامة التامة الثابتة الخالدة ، فجاءت الشريعة الخاتمة عامة في الزمان والمكان ، شاملة للإنس والجن والعرب والعجم والأحر والأسود ، قال « الله » تعالى :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾^(٢)

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾^(٣)

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٤)

ومما يدل على عموم رسالة سيدنا محمد (ﷺ) من السنة قوله : «أُعْطِيتُ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةً

(١) آل عمران : ١٩ . (٢) الأعراف : ١٥٨ .

(٣) سبأ : ٢٨ . (٤) الأنبياء : ١٠٧ .

شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ ، فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ يُعَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُغْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً^(١) فعموم الرسالة من خصوصيات رسول الله (ﷺ) وليس لأحد من الرسل السابقين عموماً في رسالته وهذا العموم لرسالة سيدنا مُحَمَّد (ﷺ) كان في أصل بعثته ومن مبدئها وأولها .

كما أنه عموم في بقاء شريعته إلى يوم القيامة ، فلا نبى بعده ولا شريعة بعد شريعته ، وللحافظ ابن حجر في هذا المقام كلام طيب دقيق ، أرى من تمام الفائدة أن أورد هنا ، قال : ولا يُعْتَرَضُ بأن « نُوحًا » (عليه السلام) كان مبعوثاً إلى أهل الأرض بعد الطوفان لأنه لم يبق إلا من كان مؤمناً معه ، وقد كان مُرْسَلًا إِلَيْهِمْ ، لأن هذا العموم لم يكن في أصل بعثته ، وإنما اتفق بالحدث الذي وقع ، وهو انحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك سائر الناس . وأما نبينا (ﷺ) فعموم رسالته من أصل البعثة ، فثبت اختصاصه بذلك ، وأما قول أهل الموقف لـ (نُوح) كما صح في حديث الشفاعة : أنت أول رسول إلى أهل الأرض .. فليس المراد به عموم بعثته ، بل إثبات أولية إرساله ، وعلى تقدير أن يكون مُرَادًا ، فهو مخصوصٌ بتنصيبه

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

سبحانه وتعالى في عدة آيات على أن إرسال (نوح) كان إلى قومه ، ولم يذكر أنه أُرْسِلَ إلى غيرهم .

واستدل بعضهم لعموم بعثته بكونه دعا على جميع من في الأرض ، فَأَهْلِكُوا بالفرق إلا أهل السفينة ، ولو لم يكن مبعوثا إليهم لما أَهْلِكُوا ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ ﴾^(١)

وقد ثبت أنه أول الرسل ، وأجيب بجواز أن يكون غيره أُرْسِلَ إليهم في أثناء مدة (نوح) ، وعلم (نوح) بأنهم لم يؤمنوا ، فدعا على من لم يؤمن من قومه ومن غيرهم فأجيب ، وهذا جواب حسن .

لكن لم ينقل أنه نُبِئَ في زمن (نوح) غيره ، ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا (ﷺ) بقاء شريعته إلى يوم القيامة ، و (نوح) وغيره بصدد أن يُبعث نبي في زمانه أو بعده فينسخ بعض شريعته .. ثم قال الحافظ : ويحتمل أنه لم يكن في الأرض عند إرسال (نوح) إلا قومه ، فبعثته خاصة لكونها إلى قومه فقط ، وهي عامة في الصورة ، لعدم وجود غيرهم ، ولكن لو اتفق وجود غيرهم لم يكن مبعوثا إليهم^(٢) . وثبت في رواية الإمام مسلم : وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ

(١) الإسراء : ١٥ .

(٢) فتح الباري ج ١ ص ٤٥٣ ط الحلبي .

أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ .. والمراد بالأحمر : العجم ، وبالأسود : العرب ، وقيل : الأحمر الإنس ، والأسود الجن .. وفي رواية أبي هريرة (رضي الله عنه) عند الإمام مُسْلِمٍ ما هو أصرح من ذلك في الدلالة على عموم الرسالة إلى جميع الخلق : وَأَرْسَلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وأما خلود رسالته (ﷺ) ، فقد تكفل ربُّ العزة سبحانه وتعالى بحفظها وحفظ دستورها السماوى وهو القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١)

وقد ختم «الله» تعالى به جميع الأنبياء والمرسلين ؛ فلا نبى بعده ولا رسالة بعد رسالته ، قال (ﷺ) : « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُسَوِّسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَأَلَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ » .

حَاجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى رِسَالَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ (ﷺ)

لم تتوفر همم المسلمين على جمع تراث وتفصيل حياة بأكملها كما توفرت لجمع كل ما يتصل بحياة خاتم الأنبياء ورسول الله الذي بَعَثَهُ «الله» رحمة للعالمين .

فقد جمعت أقواله (ﷺ) وأفعاله ، وتقريراته وصفاته الخَلْقِيَّةُ ، والخُلُقِيَّةُ ، وسيرته ، ومغازيه . وكان اهتمام المسلمين بالغاً في تسجيل جميع عباداته ، وعاداته ، وحركاته ، وسكناته لقد سجل التاريخ ، والسُّنَّةُ ، وكتب السيرة ، والشُمائل جميع ما يتصوره العقل البشري فيما يتصل بحياة رسولنا الكريم (ﷺ) . ولم يكن ذلك مجرد جمع وتسجيل فحسب بل كان بأدق الطرق في التوثيق والصحة مما لايسع المُطَّلِع عليه إلاّ الإيمان به وتصديقه . وحسبك - أيها القارئ العزيز - أن تلقى نظرة عابرة على موازين التحمُّل والأداء ، وقوانين الرواية وقواعد الجرح والتعديل .. وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب علوم الحديث .

ولم يقتصر تسجيل وقائع الحياة على حياته العامة فقط ، ولا على عباداته (ﷺ) ومعاملاته ، بل إنه شمل حياته الخاصة ودقائق ما يتصل به ، مثل : مرضعاته ، وحواضنه ، وأعمامه ، وأزواجه ، ومواليه ،

وخدمه ، وكتّابه ، وشعرائه ، ودوابّه ، وملابسه .. وغير ذلك من أموره وشئونه (ﷺ) .

ثم ما يتّصل بهديه (ﷺ) في : أكله وشربه ، ونومه وانتباهه ، وركوبه ومشيه ، وبيعه وشرائه ، وجلوسه وأتكائه ، وضججه وبكائه ، وما نقلته كتب الشمائل المحمدية وغيرها من كتب السّنة والسيرة والتاريخ الإسلامى . ولم يكن هذا كله ليقع مصادفة ودون حكمة من « الله » العزيز الحكيم . وإنما كان نقل كل ما يتّصل برسول الله (ﷺ) لحكمة دقيقة :

حتى لا يكون هناك عذر لمعتذر ، ولا علة لمعتلّ في ترك الاقتداء به أو العدول عن الاهتداء بهديه - حتى لا يكون شيء من ذلك ؛ فقد حفظ «الله» تعالى أقوال هذا الرسول العظيم (ﷺ) ، وأفعاله ، وتقاريراته ، وصفاته ، وكل ما يتصل به . وحفظ «الله» كل حقيقى وصادق من سنّته الشريفة ليكون بيّناً للقرآن الكريم الذى تكفّل «الله» تعالى بحفظه في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ ﴾ (١)

وقال سبحانه في شأن بيان القرآن الكريم وأنه تكفّل به :

﴿ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قُرِئَهُ فَانْبَعَتْ قُرْآنُهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢)

وجعل «الله» تعالى الدليل على محبته - سبحانه - هو اتباع الرسول
 (ﷺ) في قول «الله» تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١)

فكل مُدَّعٍ لمحبَّة «الله» تعالى ولم يتبع رسول الله (ﷺ) فهو
 كاذب في دعواه حتى يتبع شريعة «الله» تعالى وكما جاء في الحديث :
 « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »^(٢) .

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره : فدل على أن مخالفته في الطريقة
 كفر ، و «الله» لا يحبُّ من اتَّصَفَ بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه
 أنه مُحِبٌّ «لله» ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي العربي الأُمِّي
 خاتم الرسل ورسول الله إلى الثقلين - الجن والإنس - الذي لو كان
 الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسَّعَهُمْ إِلَّا أَتْبَاعَهُ
 والدخول في طاعته واتباع شريعته .

ولقد حمل سيدنا عيسى (عليه السلام) البشارة برسول الله
 (ﷺ) ، وقصَّ القرآن نبأ تلك البشارة في قول «الله» تعالى :
 وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا
 لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا
 جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾^(٣) .

(١) آل عمران : ٣١ . (٢) رواه أحمد ومسلم . (٣) الصف : ٦ .

وفيما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن عطاء بن يسار قال :
 لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول
 الله (ﷺ) في التوراة ، فقال : أجل «والله» إنه لموصوف في التوراة
 بصفته في القرآن : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
 وَجِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ وَأَلَّتْ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمِيتُكَ الْمُتَوَكَّلُ ، لَا فَظًّا
 وَلَا غِلْظًا وَلَا صَحَابَ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَغْفُو
 وَلَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمَلَّةَ الْعَوْجَاءُ بَأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 فَيَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَأَذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا) ^(١) .

وكان طبعياً أن يحفظ «الله» تعالى سُنَّةَ النَّبِيِّ (ﷺ) ويوفق
 المسلمين في كل عصر ومصر ليتناقلوها ، ويدونوا كل ما يتصل بحياته
 بحيث من شاء أن يصدر في حياته العامة والخاصة وباقي شئون حياته
 عن سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) ، وأن يقتدى به وجد الأمر سهلاً
 وميسراً . إنه النبي الخاتم الذي لا نبي بعده ، فالإقتداء به دائم
 ومستمر إلى أن يقوم الناس لرب العالمين . وقد وجه «الله» المسلمين
 للإقتداء به ، واتخاذهُ الأسوة الحسنة لكل من يرجو «الله» واليوم
 الآخر ويعرف «الله» حقه ويذكره ذكراً كثيراً .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ^(٢)

(١) رواه أحمد . (٢) الأحزاب : ٢١ .

ويقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه : « النَّبِيُّ الْحَاتَمُ »
 مُشِيرًا إِلَى أخبار الأنبياء السابقين منها المظمور فى الماضى ، ومنها ما لا
 يكمل يقول : أما الأنبياء الآخرون وعظماء الملل والديانات السابقة
 فيصح القول بأن أخبارهم وصور حياتهم مظمورة فى ركام الماضى ،
 وهنالك حلقات رئيسية لا يكمل غيرها التاريخ ولا يتسنى بدونها
 الاقتداء والتقليد ، مفقودة لا يمكن البحث عنها والاهتداء إليها فى هذا
 العصر المتأخر ، وهذا ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ؛
 فالمثل الإنسانية لها أعمار طبيعية وحيوية محدودة ، فإذا انتهت لم تكن
 مصلحة فى تناقلها .. أما ما كانت الحاجة إليه قائمة دائمة فيبقى على
 اختلاف الزمان والمكان ، ويستمر ، وينتشر ، ويورق ، ويثمر .

وكما تكفل «الله» تعالى بحفظ القرآن الكريم وهو دستور هذا الدين
 والأصل الأول من أصول تشريعه ، وكما حفظ الصحيح من (السنة)
 ليكون بياناً للكتاب العزيز ، وهى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن
 الكريم فإن «الله» تعالى بَشَّرَ بأن الإسلام سيلبغ منتهاه وذروته العالية
 وتعلو كلمته ويظهره «الله» على الدين كله قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ

عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (١) ﴾

ويقول سبحانه وتعالى في آية أخرى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (١)

يعلن « الله » تعالى بأنه متكفل بحفظ هذا الدين وتمامه وإظهاره على الدين كله مهما حاربه أعداؤه ومهما حاولوا إطفاء نوره .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴾ (٢)

وإن لرسولنا (ﷺ) مكانته العالية ، ومنزلته السامية ، فهو المتمم لمكارم الأخلاق ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أكمل « الله » به البناء وأتم به النعمة وبعثه رحمة للعالمين لهذا كانت حاجة الإنسان إلى رسالة سيدنا محمد (ﷺ) ضرورية .

ومن ذلك كله نقف على مكانة هذا الدين ، وأن « الله » تعالى هو الذي تكفل بحفظ أصوله ومصادره من الكتاب العزيز والسنة المطهرة وأنه سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ الدعوة نفسها ، ومظهرها على كل الدعوات ، ومتمم لها ، ومهما حاول أعداء الإسلام قديما وحديثا أن يطفئوا نورها فلن يستطيعوا ولن ينالوا منها منالا ، أو يبلغوا منها

(٢) الصف : ٨ .

(١) الفتح : ٢٨ .

- ٢٢ -

مبلغاً لأن حافظها وممسكها هو الذى يمسك السموات والأرض هو
«الله» رب العالمين ، وإذا عرفنا بأن الإنسان كان فى أُمسِّ الحاجة إلى
رسالة سيدنا محمد (ﷺ) يُخْرِجَ الناس من الظلمات إلى النور ،
ومن الضلال إلى الهدى ومن الباطل إلى الحق ، فلنقف على المرحلة
الأولى من حياته (ﷺ) .

حَوْلَ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ (ﷺ)

إن حياة رسول الله (ﷺ) كلها خير وحق ، وكلها نور وهداية ..
أحاطتها العناية الإلهية منذ أول وهلة ..

فلقد اختار «الله» تعالى رسوله (ﷺ) ، من أشرف القبائل ، ومن
خيار البطون وأزكاها ، وأظهر الأصلاب وأنقاها ، فهو خير أهل
الأرض نسبًا وشرَفًا ، حتى إن أعداءه قد شهدوا بذلك ، ولم
يستطيعوا إنكاره فهو :

سيدنا محمد (ﷺ) بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن
عبد مناف بن قُصَي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب
ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس
ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .. وإلى هنا اتفق النسَّابون على
نسبه ، ولم يختلفوا فيه .

وعدنان هذا من ولد إسماعيل (عليه السلام) فنسبه يصل إلى سيدنا
إبراهيم (عليه السلام) . ولقد تحدث رسول الله (ﷺ) عن نسبه
فقال : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كَنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا
مِنْ كَنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي
هَاشِمٍ » ^(١)

(١) رواه مسلم .

وقال (ﷺ) - متحدثا بنعمة «الله» عليه ، ومُبْلِغا أُمته ليعرفوه وَيُوقِّرُوهُ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ ، وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ » ^(١)

وقد حفظ التاريخ عراقة أصله (ﷺ) ، وشرف مَحْتَدِهِ ، وكرم آبائه وأجداده ، فأبوه هو عبد الله ، الذى كان شعاره : « أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَ » ، وقد قالت له فاطمة الخثعمية : « إِنِّى لَأَعْرِفُ فِيكَ لُسْكَ أَبِيكَ » .

وأما جَدُّه عبد المطلب ، وهو المعروف بشيبة الحمد ، فقد تولى الرفادة والسقاية فكان يطعم الحجيج ويسقيهم فى حياض من آدم إلى أن حفر زمزم ، وكانت زمزم سقيا من «الله» ، لقد أتاه فى النوم آت ، فأمره بحفرها قائلا له : احفر طيبة ، فقال : وما طيبة ؟! ، فلما كان الغد أتاه فقال : احفر بره ، فقال : وما بره ؟! فلما كان الغد أتاه وهو نائم فقال : احفر المَضْنُونَةُ ، قال : وما المَضْنُونَةُ ؟! أين لى ما تقول ؟! فلما كان الغد أتاه فقال : احفر زمزم ، قال : وما زمزم ؟! قال : لا تنزح ولا تدم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفوث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم . فلما بَيَّنَّها له ذهب عبد المطلب هو وابنه الحارث وحفرها ، وكان عبد المطلب أجود قريش كفاً ، وأبعد الناس عن كل موبقة تفسد الرجال ، وكان سيد قريش حتى مات ، كما وصفه المؤرخون .

(١) رواه مسلم .

وأما هاشم فاسمه عمرو ، وهو الذى عقد الحلف لقريش من هرقل ، لتختلف إلى الشام فى أمان وسلام ، وهو صاحب إيلاف قريش : أى ذأبها وعادتها ، وأول من سَنَّ الرحلتين : رحلة الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشى ، ورحلة الصيف إلى الشام وإلى غزّة .. وحين أصابت قريشا سنوات جذب خرج إلى الشام ، وأمر بخبز كثير وحمله حتى وافى مكة وهَشَّم ذلك الخبز أى كسره ، وثرده ونحر الإبل ، وقدم الطعام لأهل مكة . وقد تولى هاشم السقاية والرفادة ، وكان كثير الثراء ، إذا حضر الحج قام فى قريش فقال : يا معشر قريش إنكم جيران «الله» وأهل بيته وإنه يأتىكم فى هذا الموسم زوار «الله» يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف «الله» ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد تحصَّكم «الله» بذلك ، وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره فأكرموا ضيفه وزواره .

وكان يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ، وبمنى ، وعرفة .

وأما عبد مناف فإن رسول الله (ﷺ) اقتصر عليه حين أنزل «الله» تعالى عليه :

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) .

فحين اجتمع به بنو عبد مناف أخبرهم بأن «الله» أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ، قال (ﷺ) : «وَأَنْتُمْ الْأَقْرَبُونَ مِنْ قُرَيْشٍ» .

وأما قُصِّي فكان شريف أهل مكة ، بنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت ، وكانت إليه الحجابة وهي : سدانة البيت ، والسقاية وهي : سقيا الحجيج ، والرفادة وهي : إطعام الحجيج ، واللواء : للحرب ، والندوة : للمشورة وقبل موته أعطى مناصب الشرف إلى أكبر أبنائه وهو عبد الدار ، ومن أبنائه عبد مناف ..

وأما عن ولادته صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه قبل ذلك رأت أمه آمنة بنت وهب أمارات الحمل ، ولكنها لم تكن تتأكد وتشعر أنها حامل ، وذلك من عناية «الله» تعالى ورعايته ، ولم تر في حمله تعبًا ولا مشقةً ، ولذلك كانت تقول :

مَا شَعَرْتُ أَنَّنِي حَمَلْتُ بِهِ وَلَا وَجَدْتُ لَهُ ثَقْلَهُ ، كَمَا تَجِدُ النِّسَاءَ ، إِلَّا أَنِّي قَدْ أَكْثَرْتُ رَفْعَ حَيْضَتِي ، وَرُبَّمَا كَانَتْ تُرْفَعُنِي وَتَعُودُ وَأَتَانِي آتٍ وَأَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ فَقَالَ : هَلْ شَعُرْتَ أَنَّكَ حَمَلْتِ ؟ فَكَأَنِّي أَقُولُ : مَا أَذْرِي ، فَقَالَ : إِنَّكَ قَدْ حَمَلْتِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَبَنِيهَا . وَذَلِكَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ ، قَالَتْ : فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا أَتَقَنَّ عِنْدِي الْحَمْلَ .

وكانت ولادته (ﷺ) يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول (عام الفيل) . وبعد ولادته جاء جده عبد المطلب فنظر إليه ودخل به الكعبة ، وقام يدعو «الله» ، وسمّاه مُحَمَّدًا ففيل له : مَا سَمَّيْتُ ابْنَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدًا ، ففيل له : كَيْفَ سَمَّيْتَهُ بِاسْمٍ لَيْسَ لِأَحَدٍ

مِنْ أُنْبَائِكَ وَقَوْمِكَ ، فقال : إني لأَرْجُو أَنْ يَحْمَدَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ .. وتحدث رسول الله (ﷺ) عن أسمائه ، قال : «إِنَّ لِي أَسْمَاءً : أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يُمَحِّي بِهِ الْكُفْرُ وَأَنَا الْعَاقِبُ»^(١) .

وقد فرح عبد المطلب بولادته (ﷺ) أيما فرح ، وعنى به كل العناية ، أما أبوه فقد توفي وهو (ﷺ) في بطن أمه حيث كانت حاملا به لشهرين ، فولد يتيما ، ولكن جدّه كان معنياً به فرحاً بقدمه وولادته .

ولقد التمس جدّه عبد المطلب له المراضع ، قال ابن إسحاق : حدثني جهم بن أبي جهم مولى الحارث بن حاطب الجمحي عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أو عمن حدثه عنه ، قال : كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله (ﷺ) التي أرضعته تحدث أنها خرجت مِنْ بِلْدِهَا مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، خرجت على أتان لي قمرءاء معنا شارف لنا^(٢) والله ما تبض بقطرة^(٣) ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع وما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا

(١) رواه الإمام أحمد . (٢) نافقة مسنة . (٣) ما ترشح بشيء .

ما يغذيه ، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أثنائي تلك فلقد أذمت بالركب^(١) ؛ حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا^(٢) حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله (ﷺ) فتأباه ، إذا قيل لها : إنه يتيم ، وكذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ، فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا ، غيري ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : و « الله » إلى لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعا ، و « الله » لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلا تحذنه ، قال : لا عليك أن تفعل عسى « الله » أن يجعل لنا فيه بركة .

وقد لمست « حَلِيمَةَ » الخير الوافر ، والبركة الكثيرة في اللبن ، والشارف ، والأثان ، وكانت بادية (بنى سعد) تعانى . سنة مجدية ، فما إن صار فيها سيدنا محمد (ﷺ) عند حليلة حتى أصبحت منازل حَلِيمَةَ من حولها ممرعة خضراء كثيرة الخير ، وأحاطته العناية الإلهية منذ ولادته بل وقبل ذلك أثناء الحمل ، فكانت رعاية «الله» تعالى وحفظه إياه ونصرته له دائما وأبدا .

عن ابن عباس (رضى الله عنهما) : إنه لما ثوَّقِي عَبْدُ اللَّهِ ، قالت

(١) أى حسبهم أو بمعنى أذمت الأثان : جاءت بما تذبذبه عليه ، أو من قومه بثر ذمة : قليلة الماء . (٢) هزالا .

الملائكة : إلهنا وسيّدنا بقى نبيك يتيماً ؟ : فقال «الله» تعالى :
(أنا له حافظٌ ونصيرٌ) .

ثم حدث - وهو في (بنى سَعْدِ) - أن جاءه جبريل ، وكانت
حادثة شق الصدر ، «أَنَّهُ جَبْرِيلُ فَأَخَذَهُ فَضَجَعَهُ ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ
فَاسْتَخْرَجَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً ، فَقَالَ : هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ،
ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءٍ زَمْزَمَ ، ثُمَّ لَأَمَهُ وَأَعَادَهُ إِلَى
مَكَانِهِ» (١)

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - أى مرضعته - أن مُحَمَّدًا قد قُتِلَ ،
فاستقبلوه وهو مُمْتَقِعُ اللون وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات .
وتكررت حادثة شق الصدر ، عندما بلغ رسول الله (ﷺ) عشر
سنوات ، فعن أَبِي بِنِ كَعْبٍ : أَن أَبَا هُرَيْرَةَ (رضى الله عنه) كان
جريئاً على أَن يسأل رسول الله (ﷺ) عن أشياء لا يسأله عنها غيره
فقال :

يارسول الله ، ما أَوَّلُ مَا رَأَيْتَ مِنْ أَمْرِ النَّبَوَّةِ ؟ فاستوى رسول
الله (ﷺ) وقال : لَقَدْ سَأَلْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ، إِنِّي لَفِي صَحْرَاءِ ابْنِ
عَشْرِ سِنِينَ وَأَشْهُرَ ، وَإِذَا بِكَلَامٍ فَوْقَ رَأْسِي ، وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ
لِرَجُلٍ : أَهْوْ هُوَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَاسْتَقْبَلَانِي بِوُجُوهِ لَمْ أَرَهَا لَخَلْقِي
قَطُّ ، وَأَرْوَاحٍ لَمْ أَجِدْهَا مِنْ خَلْقِي قَطُّ ، وَثِيَابٍ لَمْ أَرَهَا عَلَى أَحَدٍ
قَطُّ ، فَأَقْبَلَا إِلَيَّ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَخْذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَعْضِي

(١) رواه مسلم .

لَا أَجِدُ لِأَحَدِهِمَا مَسًّا ، فقال أحدهما لصاحبه : أَضْجَعُهُ . فَأَضْجَعَانِي
بِلَا قَسْرٍ وَلَا هَضْرٍ ، وقال أحدهما لصاحبه : «أَفْلَيْقَ صَدْرَهُ» ، فَهَوَى
أَحَدُهُمَا إِلَى صَدْرِي فَفَلَقَهُ - فيما أرى - بِدُونِ دَمٍ وَلَا وَجَعٍ ،
فقال له : أَخْرِجِ الْغُلَّ وَالْحَسَدَ . فَأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ الْعَلَقَةِ ، ثُمَّ
نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا . فقال له : أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ ، فَإِذَا مِثْلَ الَّذِي
أَخْرَجَ يُشْبِهُ الْفِضَّةَ ، ثُمَّ هَزَّ إِبْهَامَ رِجْلِي الْيُمْنَى ، فقال : اغْدُ
وَاسْلَمْ . فَرَجَعْتُ بِهَا أَغْدُو رِقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ»^(١)

ثم تكررت حادثة شق الصدر مرة ثالثة عندما جاوز (ﷺ)
الخمسين عندما كان في الحطيم ، وأتى بطستٍ مملوءة إيماناً فغسل قلبه
ثم حُشِيَ ثم أُعِيدَ .

وقال (ﷺ) : «فُوجَّعَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَتَزَلَّ جَبْرِيلُ
(عَلَيْهِ السَّلَام) فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ
بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ، ثُمَّ
أَطْبَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ يَدَيَّ فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»^(٢)

وهذا الحديث يوضح أن الشق كان في هذه المرة ليلة المعراج .

وقال الشيخ الشرقاوى - في : «فتح المُبْدَى» ، عند الكلام
على هذا الحديث - : وفعل به ذلك لاستعداده للتلقى الحاصل له
في تلك الليلة ، قال : ووقع له ذلك في صغره عند مرضعته «حَلِيمَةَ»

(١) رواه الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم . (٢) رواه البخاري .

وهو ابن أربع لنزع العَلَقَة التي هي حظُّ الشيطان منه ، وفي كِبَرِهِ عند مجيء (جبريل) له بالوحي في غار (جِراء) ، ليتلقى الوحي بقلب قوى ، وروى شقُّ الصدر أيضا وهو ابن عشر أو نحوها ، وروى مرة أخرى خامسة ، ولم تثبت ^(١) أ . هـ

ولست عملية شق الصدر استئصالا لغدة من الغدد في داخل الجسم أو قطعة لحم تقطع من داخل الجسد فيصبح بذلك خيرا ، وإلاَّ لأمكن استبعاد الشر. واستئصاله بعملية جراحية .. كلا ، وإنما هي عملية تطهير معنوى أخذت الصورة المادية والشكل المحسوس ليكون في ذلك مزيد بيان وإيضاح ، وإعلان على مرأى ومسمع من الناس ، فيعلن أمر صاحب الرسالة الذي أُعِدَّ للعصمة وللوحي الإلهي فكان مجيء شق الصدر بالوسيلة المادية المحسوسة أقرب ما يكون لأن يؤمن به الناس ، وليصدقوه ، وليكون ذلك معلنا عليهم ، وما ذلك إلاَّ بقدره «الله» العزيز الحكيم .

وعندما حدثت حادثة شقِّ الصدر لرسول الله (ﷺ) قال أبوه - أى من الرضاع وهو زوج « حليمة » : يا حليمة ، لقد خشيتُ أن يكونَ هذا الغلامُ قد أُصيبَ فالحقيقه بأهله ، قبل أن يظهر ذلك به ، قالت : فاحتملناه فقدّمنا به على أمّه ، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر ^(٢) ، وقد كنتِ حريصةً عليه ، وعلى مكنه عندك ؟

(١) فتح المبدى . (٢) الظئر : المرضعة لغير ولدها .

قالت : فَقُلْتُ : قد بَلَغَ «الله» بابى ، وقضيتُ الَّذِى عَلَيَّ ،
وَتَخَوَّفْتُ الْأَحْدَاثَ عَلَيْهِ ، فَأَدْبَيْتُهُ إِلَيْكَ كَمَا تُحِبُّ ، قالت : مَا هَذَا
شَأْنُكَ ، فاصْدُقْنِي خَبْرَكَ .

قالت : فَلَمْ تَدْعِنِي حَتَّى أُخْبِرْتَهَا ، قالت : أَفَتَخَوَّفْتُ عَلَيْهِ
الشَّيْطَانَ ؟ قالت : قُلْتُ : نَعَمْ ، قالت : كَلَّا ، و«الله» مَا لِلشَّيْطَانِ
عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ ، وَإِنْ لِابْنِي لَشَأْنًا ، أَفَلَا أُخْبِرُكَ خَبْرَهُ ؟

قالت : قلت : بلى ، قالت : رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ أَنَّهُ خَرَجَ
مِنِّي نُورٌ أَضَاءَ لِي قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، ثُمَّ حَمَلْتُ بِهِ ،
فَو «الله» مَا رَأَيْتُ مِنْ حَمَلٍ قَطُّ كَانَ أَخَفَّ وَلَا أَيْسَرَ مِنْهُ ، وَوَقَعَ
حِينَ وَلَدْتُهُ ، وَأَلَّهُ لَوَاضِعٌ يَدَيْهِ بِالْأَرْضِ ، رَافِعٌ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ .

الرَّسُولُ (ﷺ) فِي شَبَابِهِ

● لقد كانت مرحلة شبابه (ﷺ) طاهرة نقية ، مستقيمة زكية ، بعيدة كل البعد عن اللهو والعبث ، بعيدة عن الشيطان ووساوسه ، وعن الهوى وهواجسه ، فقد عصمه «الله» تعالى ورعاه ، وحفظه من كل سوء ، فشرح «الله» له صدره ، ولم يجعل للشيطان عليه من سبيل .

لقد تُوفّي أبوه وهو في بطن أمه ، على أصح الآراء .. وأما أمه فقد تُوفّيَت بين مكة والمدينة بـ «الأبواء» منصرفها من المدينة ، من زيارة أخواله بنى النجار ، وهم أخوال أبيه عبد الله . وكان عمر الرسول (ﷺ) إذ ذاك لم يستكمل سبع سنين ، فكفله جَدُّه : عبد المطلب .

ثم تُوفّي عبد المطلب ، وكان عمره نحو ثمان سنين ، وقيل ست ، وقيل عشر ، وعندئذ كفله عمه : أبو طالب .

وبرغم ما كانت تعج به الحياة من حوله ، من لهو وعبث ، ومن تهالك الشباب وتهافتهم على مظاهر اللعب والطرب ، فإن شباب رسولنا (ﷺ) كان مصونا من كل دنس ، محفوظا من كل سوء أو شر .

وكان طبيعيا أن ينشأ هذه النشأة الطاهرة النقية ، لأن العناية

الإلهية كانت تُعده لأمر السماء ، ووحى «الله» ، وتبليغ الرسالة ..
كما كان دعوة أبيه (إبراهيم) ، وبشرى أخيه (عيسى) ، ورأت أمه
عندما حملت به من البشارات ما رأت .. وشرح «الله» صدره .

نور ودعوة :

● يقول ابن إسحاق : وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل
العلم - ولا أحسب إلا عن خالد بن معدان الكلاعي - أن نفرا
من أصحاب رسول الله (ﷺ) ، قالوا له : يا رسول الله ، أخبرنا
عن نفسك .

قال : نعم ، أنا دعوة أبي (إبراهيم) ، وبشرى أخى (عيسى) ،
ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور وأضاء قصور الشام ،
واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا
نرعى بهما لنا ، إذ أتاني رجلان - عليهما ثياب بيض - بطست
من ذهب مملوءة ثلجا ، ثم أخذاني ، فشقا بطني ، واستخرجا
قلبي فشقا ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلوا قلبي
وبطني بذلك الثلج حتى ألقياها ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زله
بعشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنهم .

ثم قال : زله بمائة من أمته فوزنني بهم فوزنهم ، ثم قال : زله
بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنهم .

- ٣٥ -

فَقَالَ : دَعُهُ عَنْكَ ، فَوَلَّى اللَّهُ نُوَّ وَرَثَتَهُ بِأَمَّتِهِ لَوَزْنَهَا ، زَادَ الطَّبْرِي :

قَالَ : ثُمَّ صَمُّوْنِي إِلَى صَدْرِهِمْ ، وَقَبِّلُوا رَأْسِي وَمَا بَيْنَ عَيْنَيَّ ، ثُمَّ
قَالُوا : يَا حَبِيبُ ، لَمْ تُرْعَ ، إِنَّكَ نُوَّ تَدْرِي مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الْخَيْرِ
لَقَرَّتْ عَيْنُكَ .

شَبَابُ الطَّهْرِ وَالنِّقَاءِ

● ولقد عاش رسول الله (ﷺ)، فترة شبابه بالعمل والسعي، واشتغل برعى الأغنام، قال (ﷺ): «كُنْتُ أَرْعَى الْغَنَمَ عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(١).. وفي كدّه وجدّه، وفي اشتغاله بالعمل - رغم كفالة عمه له - ما يفيد أهمية العمل، وأن خير ما يأكله الإنسان ما كان من عمل يده، كما أن في العمل ثمرة هامة أخرى بالإضافة إلى نفع الإنسان لنفسه، وتلك الثمرة هي انتفاع الحياة من العمل، وازدهار حركة المجتمع بالنشاط فيها والتفاعل معها.

وحفظ «الله» تعالى رسوله (ﷺ)، من أى عبث أو لعب، كان يأتیه غيره في مثل سنّه قال (ﷺ) «مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَهُ غَيْرَ مَرَّتَيْنِ، كُلُّ ذَلِكَ يَحُولُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بِهِ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِالرَّسَالَةِ، قُلْتُ لَيْلَةً لِلْغُلَامِ الَّذِي يَرْعَى مَعِيَ بِأَعْلَى مَكَّةَ: لَوْ أَبْصَرْتُ لِي غَنَمِي، حَتَّى أُدْخِلَ مَكَّةَ، وَأُسْمِرَ بِهَا، كَمَا يُسْمِرُ الشَّبَابُ فَقَالَ: أَفْعَلْ، فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِمَكَّةَ سَمِعْتُ عَرْفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: عُرُسٌ، فَجَلَسْتُ أَسْمَعُ، فَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي، فَنِمْتُ، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ، فَعُدْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ وَدَخَلْتُ مَكَّةَ، فَأَصَابَنِي مِثْلُ أَوَّلِ لَيْلَةٍ ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُ بِشَيْءٍ»^(٢)

(١) رواه البخاري . (٢) رواه الحاكم والطبراني .

فَضَائِلُ مُثَلَّى

هكذا كانت العناية الإلهية ، تحيط بحياة الرسول (ﷺ) ، في كل لحظة من اللحظات ، وفي كل زمان ومكان .

واشتهر (ﷺ) بينهم بالأمانة ، والحكمة وكل فضيلة كريمة من الفضائل المثلث حتى إنهم كانوا يتحاكمون إليه فيما شجر بينهم أو اختلفوا فيه ..

ومن المواقع المذكورة المشهورة موقفه من وضع الحجر الأسود ، عندما دب الخلاف بين قريش بسبب وضعه ، فإنهم عندما انتهوا في بناء الكعبة إلى هذا المكان ، قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه واختلفوا ، وكادت تقع فتنة كبرى ، خيف منها القتال ثم انتهوا إلى أن يتحاكموا إلى أول من يدخل عليهم من باب بنى شَيْبَةَ ، فيكون هو الذى يقضى بينهم .. فكان أول من دخل هو الرسول (ﷺ) ، فلما رأوه ، قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما قضى بيننا ثم أخبروه الخبر ، فقال (ﷺ) :

هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا ، فَأَتِي بِهِ فَأُخَذَ الرُّكْنُ فَوُضِعَ فِيهِ يَدِي ، ثُمَّ قَالَ : لَتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا ، فَفَعَلُوا ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ ، وَضَعَهُ هُوَ يَدِهِ ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ .

تَجَارَةٌ وَأَمَانَةٌ

واشتغل (ﷺ) بالتجارة ، وخرج في تجارة لخديجة بعد أن عرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا ، خرج مع غلام لها يقال له : «مَيْسَرَةٌ» ، ولما قدم الشام ، نزل رسول الله (ﷺ) في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان فاطلع الراهب إلى «مَيْسَرَةَ» ، فقال له : مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ؟ فقال له (مَيْسَرَةُ) : هَذَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ ، فقال له الراهب : مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ قَطُّ إِلَّا بُيِّئُ ..

وبعد أن انتهى من رحلة التجارة ، قفل راجعا إلى مكة ومعه (مَيْسَرَةُ) ، فكان (مَيْسَرَةُ) - فيما يروى - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلاله من الشمس .. فلما أخبر مَيْسَرَةُ (خديجة) بما كان من نشأته .. رغبت في الزواج منه ، وذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب ، ويقال : أبو طالب وهو الذي خطب خطبة النكاح ، ولعلهما خرجا معا ..

والمتصفح لمرحلة الشباب هذه ، يرى فيها الطهر والنبيل والنشأة المثالية العالية . التي يجد عندها القدوة الطيبة ، والأسوة الحسنة التي يجب على شباب الإسلام أن يقتدوا بها في حياتهم منتهجين فيها نهج الإسلام ورسول الله (ﷺ) .

حَوْلَ كَيْفِيَّةِ الْوَحْيِ

عنيت السُّنَّةُ الشريفة بتوضيح كيفية الوحي ، وبيان الصور والمراتب التي كان فيها من ذلك ما رواه الإمام البخاريُّ في صحيحه - بسنده المتصل - عن عائشة (رضي الله عنها) أن الحارث بن هشام (رضي الله عنه) سأل رسول الله (ﷺ) فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ فيفصم عني ، وقد وعيث عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» .

قالت عائشة (رضي الله عنها) : «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»^(١) .
ولست ظاهرة الوحي محصورة في هاتين الحالتين : مثل صلصلة الجرس و«تمثل الملك رجلاً» .. وإنما هناك حالات أخرى زائدة على ذلك فمن حالات صفة الوحي : مجيئه كدوي النحل ، والنفث في الروح ، والإلهام ، والرؤيا الصالحة ، والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة .

ومن حالات صفة حامل الوحي : مجيئه في صورته التي خلق عليها : له ستمائة جناح ورؤيته على كرسى بين السماء والأرض وقد سدَّ الأفق .

(١) رواه البخاري .

وعلى هذا فلا يُراد بالحالتين المذكورتين في الحديث حصر الوحي فيهما وأنهما تحمّلان على الغالب.. أو أن سواهما من الحالات وقع بعد السؤال ولم يتعرض الحديث لصفتي المَلَك المذكورتين وهما : مجيئه على الهيئة التي خلق عليها ، ورؤيته على كرسى بين السماء والأرض لم يتعرض لهما لندورهما فقد ثبت عن عائشة (رضى الله عنها) أنه (ﷺ) لم يره كذلك إلا مرتين ، أو لم يأتها في تلك الحالة بوحي ، أو أتاه به فكان على مثل صلصلة الجرس فإنه يَبَيِّن صفة الوحي لا صفة حامله (١).

ولقد دل القرآن الكريم على أهم وأظهر حالات الوحي وهي الحالات التي عزى إليها العلماء الحالات الأخرى قال «الله» تعالى :

﴿وَمَا كَانَ

لِنَبِّئَ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ

رَسُولًا فَيُوحِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ ﴿٥١﴾﴾ (٢)

وقد ذكر ابن القيم (رحمه الله) مراتب الوحي فأوصلها إلى سبع مراتب .

الأولى : الرؤيا الصالحة وكانت مبدأ وحيه (ﷺ) وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

(١) فتح الباري . (٢) الشورى : ٥١ .

— ٤١ —

الثانية : ما كان يلقيه المَلَكُ في رَوْعِهِ وقلبه ، من غير أن يراه كما قال النبي (ﷺ) :

«إِنْ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي : أَلَهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلْكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» .

الثالثة : أنه (ﷺ) كان يتمثل له المَلَكُ رَجُلًا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صَلَصلةِ الجَرَسِ وكان أشده عليه فيتلبس به المَلَكُ حتى أن جبينه ليتفصّد عَرَقًا في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راکبها ، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فنقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحى إليه ما شاء «الله» أن يوحىه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر «الله» ذلك في سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه «الله» إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملكٍ كما كَلَّمَ «الله» موسى بن عمران وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن وثبوتها لنبينا (ﷺ) في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي : تكليم «الله» له كِفَافاً من غير حجاب وهذا على مذهب من يقول: أنه (ﷺ) رأى ربه تبارك وتعالى ، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف وإن كان جمهور الصحابة - بل كلهم - مع عائشة كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعاً للصحابة . أ . هـ (١) .

وجمع الحافظ ابن حجر بين الحالات المذكورة وهي كثيرة وبين الحالتين الواردتين في الحديث وما جاء به القرآن الكريم مُؤَفَّقاً بينها فقال :

وأما التَّفَتُّ في الرُّوعِ : فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين ،

وأما فنون الوحي : فَدَوِيُّ النَّحْلِ لا يُعَارِضُ صَلَـةَ الْجَرَسِ لأن سماع الدَّوِيِّ بالنسبة للحاضرين كما في حديث عمر : «يَسْمَعُ عِنْدَهُ كَدَوِيُّ النَّحْلِ» والصلصلة بالنسبة إلى النبي (ﷺ) فشبهه عمر بدوى النحل بالنسبة إلى السامعين وشبهه هو (ﷺ) بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه .

(١) من كتاب زاد المعاد جـ ١ ص ٣٣ وما بعدها .

فإذا أتاه الملك في صلصلة الجرس نفث حينئذ في روعه .. وأما الإلهام فلم يقع السؤال عنه لأن السؤال وقع عن صفة الوحي الذي يأتي بحامل وكذا التكليم ليلة الإسراء .

وأما الرؤيا الصالحة : فقال ابن بطال لا ترد لأن السؤال وقع عما ينفرد به عن الناس لأن الرؤيا قد يشركه فيها غيره والرؤيا الصادقة وإن كانت جزءا من النبوة فهي باعتبار صدقها لا غير وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبيا وليس كذلك ويحتمل أن يكون السؤال وقع عما في اليقظة أو لكون حال النيام لا يخفى على السائل فاقصر على ما يخفى عليه أو كان ظهور ذلك له (ﷺ) في المنام على الوجهين المذكورين لا غير ، قال الكرمانى : وفيه نظر وقد ذكر بعضهم أن الوحي كان يأتيه على ستة وأربعين نوعا فذكرها وغالبها من صفات حامل الوحي ومجموعها يدخل فيما ذكر. أ. هـ (فتح البارى)

والصلصلة : هي صوت ينبعث من وقوع الحديد بعضه على بعض ثم أطلق على كل صوت له طنين ، وقال الكرمانى : الجرس ناقوس صغير أو سطل في داخله نحاس يعلق منكوسا على البعير فإذا تحرك تحركت النحاسة فأصابت السطل فحصلت الصلصلة أ. هـ .

- ولكن كيف وقع تشبيه الوحي وهو محمود - بصوت الجرس وهو مذموم ؟ لصحة النهى عنه .

وأجيب عن ذلك بأنه لا يلزم من التشبيه تساوى المشبه والمشبّه

به من جميع الوجوه بل يكفى الاشتراك فى صفة ما ، فذكر ما ألفه السامعون تقريبا للعقول ، ثم أن للصوت قوة وطنينا ، وقد وقع التشبيه به من حيث القوة لا من حيث الطرب ، فقد وقع التنفير منه .

- والمراد بالصلصلة المذكورة : صوت الملك بالوحى وقال الخطائى : يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد . وقيل : بل صوت حفيف أجنحة الملك .
والحكمة فى تقدمه أن يقرع سمعه الرحى فلا يبقى فيه مكان لغيره .

- وإنما كان هذا الوضع بالنسبة للوحى أشد الأنواع لأن الفهم من كلام مثل الصلصلة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود .

وفائدة الشدة : ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات ، ومعنى «يفصم» يقلع وينجلى ما يغشاها وأصل الفصم القطع . ومعنى قوله (عليه السلام) : «وقد وعيت عنه ما قال» : أى القول الذى جاء به .

والمراد بقوله : «وأحيانا يتمثل لى المَلَك رَجُلًا» أى يتصور ، واللام فى المَلَك للعهد وهو جبريل .. وظهور المَلَك فى صورة رَجُل له أثره فى الموائسة للمُخَاطَب .

وقد جاء التعبير متغيرا في الحالتين ففي الأول قال : «وَلَقَدْ وَعَيْتَ» بلفظ الماضي وفي هذه الحالة الثانية قال: «فَأَعْيَى» بلفظ الاستقبال لأن الوعى حصل في الأول قبل الفصم وفي الثاني حصل حال المكاملة ويدل قول السيدة عائشة (رضى الله عنها) : «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبَّيْنَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا» يدل هذا على أنه كان يعاني شدة من نزول الوحي لما فيه من مخالفة العادة وهو كثرة العرق مع شدة البرد فإن هذا يدل على أمر طارئ شديد على ما تحتمله الطباع البشرية .

ولقد كانت عناية الكتاب والسنة بظاهرة الوحي عناية فائقة تكشف عن كيفية الوحي وأول بدئه ، وما يصحب الوحي من سمات ومظاهر .. إلى غير ذلك من الأمور .

ولما كان موضوع الوحي هو الموضوع الأول والأكبر للإسلام فهو طريق وصول العقيدة والتشريع والأحكام والأخلاق ومن أجل هذا اتجه إليه محترفو الغزو الفكري ، وصَوَّبَ أعداء الإسلام سهامهم إليه محاولين التشكيك والتلبيس والخلط بينه وبين الحديث النفسى والإلهام وما إلى ذلك مما خاضوا فيه بتهيج وتمحل .

ولكن أنى لهم ذلك ؟ وظاهرة الوحي ثابتة ثبوتا واضحا وقويا ومتواترا ، ودل عليها الكتاب والسنة والإجماع مما يُفْجِم المنكرين والمكابرين والمعاندين .

المرحلة السريّة

سارت الدعوة الإسلامية في أول عهدها سريّة ، وشرع رسول الله (ﷺ) يدعو إلى عبادة «الله» وحده لا شريك له ، وترك عبادة الأوثان ، في خفاء وحيلة ، وكتّان وحذر ، لأن قريشا كانت في غاية التعصب لما هي عليه من وثنية ، ولما درج عليه الأبناء منهم بعد الآباء لهذا لم يجهر الرسول (ﷺ) بالدعوة في بادئ أمرها ، ولم يأتها أمر السماء بالجهر بها ..

وللدعاة والمصلحين الأسوة الحسنة في رسول الله (ﷺ) .. فعليهم أن يتبعوا في دعوتهم المنهج الأمثل ، وأن يدعوا إلى «الله» على بصيرة وهدى ؛ فيُسِرُّون بالدعوة حين يرون الأمر في حاجة إلى السرّ ، ويجهرون بها حين يرون الجو ملائما للجهر .

وكان أول من آمن به خديجة (رضى الله تعالى عنها) ، فقد صدقت بالدعوة من أول وهلة ، وآمنت بما جاء (ﷺ) به ، وآزرته ، وخفّفت عنه كل عناء ، وهوّنت عليه أمر الناس .

وآمن على بن أبي طالب (رضى الله عنه) ، وصدق برسول الله (ﷺ) وبما جاء به من ربه وعمره إذ ذاك عشر سنين .

ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله (ﷺ) ثم جاء الخير الكبير بإسلام أبي بكر الصديق (رضوان الله تعالى عليه) حيث قام بالدعوة

إلى الإسلام ، وكان مألوفاً لقومه ، ومعروفاً ، وكان تاجراً مشهوراً بالبروة والمعروف وبالخلق .. فأسلم بدعوته ودخل الإسلام على يديه : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

وقد جاء بهم أبو بكر (رضى الله عنه) إلى رسول الله (ﷺ) فأسلموا وصلوا واستجابوا «لله» ولرسوله .

وكان رسول الله (ﷺ) يقول :

«وَمَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَأَنَّهُ عِنْدَهُ كَبُورَةٌ - أَى تأخير - وَنَظَرٌ وَتَرَدُّدٌ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بِنِ أَى قُحَافَةٍ ، وَمَا عَكَمَ عَنْهُ - أَى تلبث - حِينَ ذَكَرْتُهُ لَهُ ، وَمَا تَرَدَّدَ إِلَيْهِ .

وحسبه كرامة ومثوبة ، ومنزلة وفضلا قول رسول الله (ﷺ) في شأنه :

«إِنَّ أَمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا ، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامِ لَا تَبْقِيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْعَةً إِلَّا خَوْعَةُ أَبِي بَكْرٍ»^(١) .

ثم دخل الإسلام بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة ، والأرقم بن أبي الأرقم وغيرهم .

(١) رواه مسلم .

وظل العدد يزداد حتى قارب الأربعين .. وكانوا في هذه المرحلة السريّة للدعوة لا يستطيعون أن يجابها قريشًا ، ومجالسها العامة .. بل كانوا إذا أرادوا القيام بعبادة ذهبوا إلى شعابِ (مكة) مستخفين عن العيون بعيدين عن الناس حيث لا يراهم أحد .

وكانوا يلتقون بالنبي (ﷺ) سرًا .. ولكن لما كثر العدد اختار لهم رسول الله (ﷺ) دار الأرقم مقرا ، وفي هذه الدار كان يجتمع رسول الله (ﷺ) بالجماعة المسلمة الأولى ، وكانت هذه الدار بمكة على الصفا ، وفيها أسلم عدد كبير .. وكان يعلمهم رسول الله (ﷺ) أمور دينهم ، ويقرئهم القرآن الكريم .

وقد مكثوا في دار الأرقم حتى تكاملوا أربعين رجلا من المسلمين السابقين الخالصين وكان آخرهم إسلاما عمر بن الخطاب وبعد ذلك خرجوا .

وفي دار الأرقم هذه كان يجتمع هؤلاء السابقون برسول الله (ﷺ) والإسلام ما يزال بعد في أول عهده .. إنه في مرحلته السرية ، ولذلك ما إن ترامى الخبر إلى سمع قريش إلا وسعت جامدة في محاولة القضاء عليه .

وكان عمر بن الخطاب - قبل أن يدخل الإسلام - قد فكّر وقدّر وسعى لقتل رسول الله (ﷺ) ليريح قريشًا ، إنه قد سبَّ الآلهة ، وفرّق الأمر ، ولما ذهب إلى هذه الوجهة الخاسرة الضالة لقيه في

الطريق «نعم بن عبد الله» فلما أخبره الخبر قال له نعم : يا عمر ، أترى
بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟
أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ؟

وكانت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما ، ففعل عمر
راجعا إليهما ، ودخل عليهما ، وكان عندهما خباب بن الارت ومعه
صحيفة فيها «سورة طه» يُقْرَأُهَا إِيَّاهَا فلما سمعوا حسَّ عمر تغيب
خباب ، وأخذت فاطمة الصحيفة ، وكان عمر قد سمع - عندما
اقترب من البيت - قراءة خباب عليهما فلما دخل قال : مَا هَذِهِ
الْهِبَةِ الَّتِي سَمِعْتُ .

قالا له : مَا سَمِعْتَ شَيْئًا .

قال : بلى و«الله» لقد أُحْبِرْتُ أَنَّكُمَا تَابَعْتُمَا مُحَمَّدًا عَلَى دِينِهِ ،
وبطش بزواج أخته سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت
الخطاب لتكفَّه عن زوجها ، فضرَبها ؛ فشحَّها .

فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلما ، وآمنا
بـ «الله» ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .. فلما رأى عُمر ما بأخته من
الدم ندم على ما صنع ، فارعوى - أى رجع - وقال لأخته :
أَعْطَيْنِي هَذِهِ الصَّحِيفَةَ الَّتِي سَمِعْتُكُمْ تُقْرَأُونَ أَنْفَا ، أَنْظُرْ مَا هَذَا
الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ، وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له

أخته : إِنَّا نَخْشَاكَ عَلَيْهَا ، قال : لَا تَخَافِي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقلت له : يَا أَخِي ، إِنَّكَ نَجِسٌ عَلَى شِرْكِكَ ، وَإِنَّهُ لَا يَمْسُهَا إِلَّا الطَّاهِرُ ، فقام عمر فاغتسل ؛ فأعطته الصحيفة وفيها «طه» فقرأها :

﴿ طه ١ ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ ٢ ﴾ ﴿ ١ ﴾

فلما وصل إلى قوله تعالى :

﴿ لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ ﴿ ١٥ ﴾ ﴿ ٢ ﴾

قال : مَا أَطِيبَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَحْسَنَهُ .. فلما سمع ذلك حَبَاب خرج إليه ، فقال له : يَا عُمَرُ ، وَ «الله» إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ «الله» قَدْ حَصَّنَكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ (ﷺ) أَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ : اَللّهُمَّ أَيْدِ الْإِسْلَامَ بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ .. فد «الله» «الله» يا عُمَرُ .

فقال له عند ذلك عمر : قَدْ لَبِىَ يَا حَبَابُ عَلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى آتَيْتَهُ فَأَسْلَمَ فقال له حباب : هُوَ فِي بَيْتٍ عِنْدَ الصَّفَا وَمَعَهُ نَقَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَخَذَ عُمَرُ سَيْفَهُ فَتَوَشَّحَهُ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى هُنَاكَ فَضْرَبَ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَنَظَرَ مِنْ خِلَالِ الْبَابِ فَرَأَاهُ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ

(١) طه : ١ ، ٢ . (٢) طه : ١٥ .

(ﷺ) وهو فزع ، فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ . فقال حمزة بن عبد المطلب : فَأَذَنْ لَهُ فَإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ خَيْرًا بَدَلْنَاهُ لَهُ وَإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ شَرًّا قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ .

فقال رسول الله (ﷺ) : ائْذَنْ لَهُ ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله (ﷺ) حتى لقيه في الحجرة فأخذ حجزته - وهو موضع شد الإزار - أو أخذ بمجمع رداءه ثم جبهه به جبذة شديدة ، وقال : مَا جَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، فوالله مَا أَرَى أَنْ تُنْتَهِيَ حَتَّى تُنْزَلَ بِكَ قَارِعَةٌ - أَى دَاهِيَةٌ - ؟

فقال عمر : يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُكَ لِأُؤْمِنَ بِ«اللَّهِ» وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ «اللَّهِ» ، فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) تَكْبِيرَةً عَرَفَ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) أَنْ عَمَرَ قَدْ أَسْلَمَ .

وعز الإسلام بدخول (عمر) في الإسلام فبدخوله ، ودخول (حمزة) قوى أمرهم ، وعَزَّوْا ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله (ﷺ) ويحميانه من خصومه ومن كل أذى يلاحقه من أعدائه .

وبدخول عمر في الإسلام تمت نهاية المرحلة السرية للدعوة فلم يرض عن اختفاء المسلمين حين صلاتهم وإنما راح (عُمر) يناضل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه .

فكان إسلامه - بحق - فتحا للمسلمين ، يقول عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) :

إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه .

وهكذا نرى كيف شقت الدعوة طريقها بين غيوم الشرك الكثيفة في جو ملبد خانق .. فشاء «الله» ، تعالى للفجر أن ينبثق ، ولشمس الهدى أن ترسل أشعتها إلى كل الأرجاء .. فإذا بالصفوة المختارة قد سبقت إلى الإسلام وحملت أشعة الخير تهدي الحيارى وتنافح عن الإسلام في كل زمان ومكان .

ولئن كان هذا شأن القلة المؤمنة في زمن يسير ، وفي جو رهيب ، وفي خفاء وسرية ، وفي بساطة عيش وقلة ذات اليد .. ولكنهم كانوا أقوياء بـ «الله» شجعان بالإيمان ، مُسلِّحين بالحق والتقوى والإخلاص .

وإذا كان هذا جهادهم في سبيل الدعوة مع قلوبهم ومع ما يحيط بهم فما بال العالم الإسلامي اليوم والإسلام - بحمد الله - منتشر في كل مكان وعدد المسلمين في العالم من الكثرة بحيث يستطيع أن يكون أكبر قوة داعية ظافرة منتصرة .. وذلك بتوثيق الصلة بـ «الله» والاعتصام بحبله ، والتضامن الإسلامي على أكبر المستوى .. و«الله» الموفق والهادي إلى أقوم السبل .. ونسأل «الله» تعالى أن يجمع المسلمين ، وينصرهم نصراً مُؤزراً ، وما النصر إلا من عند «الله» العزيز الحكيم .

الْجَهْرُ بِالذُّعْوَةِ

وبعد أن مكثت الدعوة سرية ثلاث سنين ، شاء « الله » تعالى لرسوله (ﷺ) ، أن يجهر بها : فأُنزل عليه قوله سبحانه :

﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٤) (١)

كما أمره « الله » أن يُنذِرَ عشيرته الأقربين فقال تعالى :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) (٢)

فقام (ﷺ) ، بتنفيذ الأمر الإلهي ، فصعد على الصفا مناديا القوم : « يَا بَنِي فِهْر .. يَا بَنِي عَدِي » ، حتى اجتمعوا ، فقال لهم رسول الله (ﷺ) : أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تَغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي ؟ قالوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا . قال : فَأُزَيِّرُ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

ثم قام (ﷺ) بتنفيذ الأمر الإلهي الثاني ، وهو : أن ينذر عشيرته الأقربين فجمعهم وقال لهم :

يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ الْيَقْدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ الْيَقْدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْيَقْدُوا أَنْفُسَكُمْ

(١) الحجر : ٩٤ . (٢) الشعراء : ٢١٤ ، ٢١٥ .

مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ أَلْقِيْذِي نَفْسِكَ مِنَ النَّارِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنْ لَكُمْ رَحِمًا سَأُبَلِّهَا بِبِلَالِهَا - أَى أَصْلَها بصلتها - فتعللوا بتقاليدهم الموروثة ، واتباع ما كان عليه آباؤهم فلما عاب ألهمهم ، وسفه تقاليدهم وأحلامهم عادوه وتنكروا له ولدعوته .

وقد تعرض (ﷺ) إلى كثير من الأذى والاضطهاد ، روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

بينما النبي (ﷺ) يصلى فى حجر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه على عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي (ﷺ) ، وقال : أَتُقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ ؟

كما تجرع أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم) ، الكثير من صنوف الأذى والعذاب .

عن خباب بن الأرت أنه قال : أتيت النبي (ﷺ) وهو متوسد برزده وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : يارسول الله ، ألا تدعو الله لنا ؟ فقد وهو محمّر الوجّه ، فقال : «لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحمٍ أو عصبٍ ما يصرفه عن دينه ، ولئيمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله» (١)

وهكذا بذل المشركون ما بذلوه من صنوف الأذى والعذاب ، ووقفوا في طريق الدعوة وفي طريق الإسلام بالمرصاد ، ولكنهم واجهوا قلوبا قوية الإيمان ، وأرواحا متصلة بالسماء ، لا يصرفها عن دينها تنكيل أو تعذيب ، بل كانوا يستعذبون العذاب في سبيل دينهم وعقيدتهم وفي سبيل الله ورسوله ، فلما رأى المشركون أن الرسول (ﷺ) ماض في دعوته وأن أتباعه يزدون ولا ينقصون ، ولا يتردد أحد منهم ، ورأوا وسمعوا كيف تناهض دعوته معتقداتهم ، وتسفه أعلامهم . رأوا أن سياسة التعذيب والإيذاء غير مجدية في صده وصد أتباعه ، ورأوا عمه قد قام دونه . فلجأوا إلى حيلة أخرى : حيث مشى جماعة من أشراف قريش إلى عمه أبي طالب ، وقالوا له : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أعلامنا وضللّ أبنائنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلّي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه : فردهم أبو طالب برفق ولين وانصرفوا .. ومضى (ﷺ) ، في إظهار دين الله ، وفي الدعوة إليه ، فعاودوا الكرّة مرّة أخرى على أبي طالب بعد أن اشتد الأمر بينه وبينهم ، فقالوا له :

يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ، ومنزلة فينا ، وإنّا قد استهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أعلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

وعندئذ عظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، وفى نفس الوقت لا يمكن أن يفرط فى رسول الله (ﷺ) ولا فى حمايته فقال أبو طالب للرسول (ﷺ) :

يَا بْنَ أَخِي ، إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاءُوا نِي فَقَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا ، فَأَبِى عَلَى وَعَلَى نَفْسِكَ ، وَلَا تُحْمِلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَالاً أُطِيقُ ، قال : فظن رسول الله (ﷺ) أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه ، فأجابه رسول الله (ﷺ) إجابة كلها قوة وإيمان ، وصاح بعبارته التى ظلت على مر التاريخ عنوان الشجاعة فى الحق ، وآية الآيات على التفانى فى سبيل العقيدة قال :

«يَا عَمَّ ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ ، أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ» .. ثم استعبر رسول الله (ﷺ) ، فبكى ثم قام ، فناداه أبو طالب قائلاً له :

أَهْلِيلَ يَا بْنَ أَخِي ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ، فقال : اذْهَبْ يَا بْنَ أَخِي فَقُلْ مَا أَحْبَبْتُ ، وَاللَّهِ لَا أَسْلُمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا .

وبهذا تكون قد فشلت حيلة المشركين هذه ، فى محاولتهم فصل عمه أبى طالب عنه ، وتحليه دونه .. بل إنه حتى لو حدث هذا فإن رسول الله (ﷺ) لن يتخلى عن دعوته حتى لو قايسوه عليها بالشمس والقمر فى يديه .. بل حتى لو هلك فى سبيل ذلك .

تلك هي الشجاعة في الحق والاعتصام بالدين ، والغيرة عليه ، ولنا في رسولنا (ﷺ) الأسوة الحسنة ، ولجميع الدعاة والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء خير زاد من سيرة رسول الله (ﷺ) ، وعدم تخليه لحظة عن دعوته إلى الحق ، حتى ولو أعطى النيرين ، أو هلك دون ذلك .

ونحن إذ نواجه العدوان على الإسلام والمسلمين ، ومحاربة الفكر الإسلامي ، نرى أن هذا ليس بجديد علينا ، ولا هو بغريب من أعداء الإسلام ، فالحق والباطل في صراع إلى يوم القيامة ، ومعركة الخير والشر مستمرة ..

ولكن واجبنا أن نتسلح أولا : بالإيمان ، وأن يقترن بالعمل ، وأن نعد جيلا من الدعاة ، يكونون بمثابة الجنود الرابضين على الخطوط ، يذودون عن حمى الإسلام ، ويردون كل شبهة تثار ، حتى يأخذ الجهاد في معركة الدعوة طريقه جنبا إلى جنب مع الجهاد في ميدان القتال .. والله الهادي إلى سواء السبيل .

مِنْ خَصَائِصِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ

لبيت النبوة سماته وخصائصه .. التي خصه «الله» تعالى بها وميزه لحمل تراث النبوة وتلقى الوحي الإلهي .. وليس المال ولا زخرف الحياة الدنيا ، ولا مباهجها الزائفة وعرضها الزائل ، وذلك ليكون المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة ، في الرضا والقناعة ، والصبر والاحتمال ..

وقد كان رسول الله (ﷺ) أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فهو الرؤوف بهم والعطوف عليهم .. وكانت أزواجه أمهاتهم .
قال الله تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾^(١)

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال : «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاقْرَءُوا إِنَّ

(١) الأحزاب : ٦ .

شَيْئٌ - ﴿الَّتِي أَوَّلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ
مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصْبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، وَإِنْ تَرَكَ ذَيْنًا أَوْ ضِيَاعًا فَلْيَأْتِنِي
فَأَنَا مَوْلَاهُ» (١) .

● ولقد ضرب (ﷺ) أروع الأمثلة في حياة التقشف والزهد
والقناعة والرضا ، وجعل من نفسه وبيته المثل المحتذى والأسوة
الحسنة في العزوف عن الدنيا ، وعن الغرور بها ، وفي الإعراض عن
زهرتها .

لقد أخذ نفسه وأهله بالتقشف والزهد والقناعة ، لدرجة أنه لم
يشبع ثلاثة أيام تباعا من خبز ، وعن عائشة (رضى الله عنها) أنها
قالت : مَا شَبِعَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعًا مِنْ خُبْزٍ حَتَّى
مَضَى سَبِيلَهُ (٢) .

بل إنه (ﷺ) لم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير ، فعن
عبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنه) أنه قال : هَلَكَ رَسُولُ اللَّهِ
(ﷺ) ، وَلَمْ يَشْبِعْ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ (٣)

وكانت بيوته (ﷺ) على درجة عالية من الرضا والقناعة ، لا
سيما عندما كان العيش قليلا .. ولا يوجد لدى أمهات المؤمنين من
الأطعمة ما يطهى بالنار مدة طويلة ..

(١) رواه البخارى . (٢) رواه مسلم . (٣) رواه الترمذى .

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت لعروة : يَابْنَ أُحْتَى إِنْ كُنَّا نَتَنَظَّرُ إِلَى الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَنْبِيَاءِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) نَارٌ ، فَقَالَ : يَا حَالَةَ مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ ؟
قالت : الْأَسْوَدَيْنِ ، الثَّمَرُ وَالْمَاءُ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَاحِجُ ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَا .. (١)

وكان هذا الزهد والتقشف وحياة القناعة والخشونة ، مثلاً يحتذى في الصبر والرضا ، يجوع يوماً فيصبر ، ويشبع يوماً فيشكر ويعيش حياته ، بين التضرع والدعاء ، والشكر والثناء .

قالت عائشة (رضى الله عنها) : وَلَقَدْ مَاتَ وَمَا فِي بَيْتِي شَيْءٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَقٍّ لِي ، وَقَالَ لِي : إِنْ عَرِضَ عَلَيَّ أَنْ يُجْعَلَ لِي بَطْحَاءُ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ : لَا يَأْرَبُ ، أَجُوعُ يَوْمًا فَأَصْبِرُ ، وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأَشْكُرُ ، فَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ ، فَأُتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ ، وَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ ، فَأُحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ (٢) .

ولقد أخذ (ﷺ) حياته على هذا النحو ، على الرغم مما كان في وسعه ، من أن تكون له بطحاء مكة ذهباً .. ولكنه الرضا والقناعة ،

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه الشيخان .

والأسوة الحسنة التي يجب على أمته (ﷺ) أن تتوخاها فلا تغرها الحياة ولا يغرها به «الله» الغرور .

فلقد عرض عليه كبراء القوم مقاليد الأمر وعرضوا عليه المال والجاه والسلطان والسيادة لكنه رفض بإباء وشمم وقوة لا نظير لها لأنه ليس طالب مال ولا جاه وإنما جاء إلى الحياة وأرسل إلى الناس شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى «الله» بإذنه وسراجاً منيراً .

وكانت هذه الحياة إعداداً أو تهيئة للدار الآخرة وليكون بيت النبوة مثلاً يحتذى وقدوة للناس ، وحين طلب أمهات المؤمنين من رسول الله (ﷺ) النفقة نزلت آية التخيير والتي تخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها وبين «الله» ورسوله والدار الآخرة .

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت : لما نزلت آية التخيير بدأ بي رسول الله (ﷺ) فقال : يَا عَائِشَةُ إِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكَ أُمْرًا فَلَا تُؤَافِقِينِي فِيهِ بِشَيْءٍ حَتَّى تُعْرِضِيهِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ - أُمِّي بَكْرٍ وَأُمُّ رُومَانَ - فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ ؟ قَالَ (ﷺ) :

قال الله عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ

سَرَحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْذَّارَ
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾^(١)

قالت : فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا أُوامر في ذَلِكَ
أَبَوِي - أبا بكرٍ وَأُمُّ رُومان - فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) ثُمَّ اسْتَقْرَأَ
الْحُجَرَ فَقَالَ : «إِنَّ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ : «كَذًا وَكَذًا»
فَقُلْن : وَلَوْ أَنَّ قَوْلِي مِثْلُ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)
كَلْهَن»^(٢).

ومما اختص «الله» به أمهات المؤمنين أن من يأت منهن بفاحشة
مبينة - وهى النشوز وسوء الخلق - يضاعف لها العذاب ضعفين في
الدنيا وفي الآخرة وأن من يطع «الله» ورسوله منهن يؤتها أجرها
مرتين.

قال الله تعالى :

﴿يُنَاسِئُ النَّبِيَّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفُ
لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾
﴿وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾^(٣)

(٢) رواه ابن أبي حاتم .

(١) الأحزاب : ٢٨ - ٢٩ .

(٣) الأحزاب : ٣٠ - ٣١ .

وَيَمْتَنُّ «الله» عليهن بلطفه ، حيث خصهن ببلوغ تلك المنزلة وأنهن أهل لذلك حيث أنعم «الله» عليهن بأن جعلهن في بيوت تتلى فيها آيات «الله» تعالى والحكمة قال سبحانه:

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٢٤)

ويعرج على هذا الأمر الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - حين يتحدث عن خصوصية زواج الرسول (ﷺ) رادا فرية المفتريين على مقام النبوة فيقول : لم تكن تلك الخصوصية لتمكين صاحبها من المتعة والاستغراق في مناعم الحياة الزوجية .. فإن البيت الذي يشكو نساؤه قلة المؤونة والزينة ، لا يقال عنه : إنه بيت رجل تملكه أهواء نفسه وتغلبه على رشده ولا يمد يده لاغتراف الثروة التي تكفي زوجاته وتملى لهن في الترف والزينة لن يكون رجلا مغلوب الحس منساقا مع غواية المتعة ووساوس الشهوات ، وليس بالرجل المخلوق لطلب اللذة من ينهض بما نهض به نبي الإسلام من عظام الأمور في مدى سنوات معدودات .. إلخ .

وليس معنى هذا أن في الإسلام دعوة إلى القلة والفقر ، أو أن فيه حجرا على التمتع بطيبات الحياة .. وإنما هي القدوة المثلى والأسوة

الحسنة والتماذج العالية التي رباها الإسلام فاستهانت بزخارف الحياة أو جاه أو ثراء أو عرض من زينة الحياة الدنيا ..

أما حقيقة الدين ، فهي تجمع متطلبات الجسم والروح والدنيا والآخرة وقال الله تعالى :

﴿ يَبْنِيْءَ اَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا اِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴾ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ﴿٣٢﴾ (١)

- ومن خصائص بيت النبوة : أن الذي يتركه النبي (ﷺ) من المال يكون صدقة فلا يسرى عليه ما يسرى على أموال سائر الناس من الميراث ، فقد قال (ﷺ) : « إِنَّا مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ ، وَمَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » وأما قول الله تعالى - حكاية عن زكريا -

﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ ءَالٍ يَعْزُوبُ ۖ ﴾ (٢)

فلم يرد يرثنى مالى وإنما أراد أن يرثه الحبورة لأنه كان حبرا ويرث من آل يعقوب : أى يرث الملك .
وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾^(١)

فالمراد : ورثه الملك والنبوة والعلم وكلاهما كان نبيا وملكا .. ومن الأدلة أيضا على أن رسول الله (ﷺ) لا يورث أنه كان لا يرث بعد أن أوحى الله إليه ، وإنما كانت وراثته أبويه قبل الوحي .

وأما منازعة فاطمة ، أبا بكر (رضى الله عنهما) فى ميراث النبى (ﷺ) فليس بمنكر لأنها لم تعلم ما قاله رسول الله (ﷺ) وظنت أنها ترثه كما يرث الأولاد آباءهم فلما أخبرها بقوله كفت .

أَثَرُ أَمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَشْرِ السُّنَنِ وَالْأَحْكَامِ

● لأَمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَثَرُ هَام ، فِي نَشْرِ السُّنَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ (عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ) ..

فَقَدْ قَمَنَ (رَضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِنَ) بِتَبْلِيغِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْأَحَادِيثِ وَالسُّنَنِ ، الَّتِي لَوْلَاهُنَّ ، لَمَا وَصَلَتْ إِلَيْنَا ، وَبِالْأَخْصِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ الَّتِي كَانَتْ تَقَعُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَبَيْنَهُنَّ ، مِنَ الْأُمُورِ الْخَاصَةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهَا ، وَ لَا يَقِفَ عَلَى أَحْكَامِهَا .

وَمِنْ أَجْلِ تِلْكَ الْمَهْمَةِ الْعَالِيَةِ ، وَالرَّسَالَةِ الْكُبْرَى ، الَّتِي تَضْطَلِعُ بِهَا أَمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ «اللَّهُ» سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَوَجْهَ أَمْرِهِ الْإِلَهِيِّ إِلَيْنَ وَالِاسْتِقْرَارِ فِي بَيُوتِهِنَّ ، وَمَذَاكِرَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَةِ وَمَدَارِسْتِهَا ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَقَرْنَ

فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ

ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴿١﴾

يقول قتادة وغيره : واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن ، دون سائر الناس ، والسيدة عائشة (رضى الله عنها) ، أكثر أمهات المؤمنين بهذه الغنية ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها .

ويقول ابن جرير - رحمه الله - في الآية السابقة : واذكرن نعمة «الله» عليكن ، بأن جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة وهي السنة .

وهذه أم سلمة (رضى الله تعالى عنها) قالت للنبي ﷺ : ما لنا لا نُذَكَّرُ في القرآن كما يُذَكَّرُ الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعري ، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرتي - حجرة بيتي - فجعلت سمعى عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ..) إلى آخر الآية ^(١)

والآية الكريمة من سورة الأحزاب ، وتتمامها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ

(١) رواه أحمد والنسائي وابن جرير .

وَالصَّابِرِينَ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ (١)

ومن بين الحكم الإلهية العالية التي أباح «الله» للرسول (ﷺ) بسببها الزواج بأكثر من أربع زوجات ، وخصه بذلك وحده دون غيره من سائر الأمة، هو أن يتسنى لأمهات المؤمنين القيام بالتبليغ عن رسول الله (ﷺ) ، وبالأخص في تلك الأمور التي لا يراها أصحابه ، ولا يطلع عليها إلا أمهات المؤمنين ، ومن أجل ذلك كان الصحابة (رضى الله تعالى عنهم أجمعين) ، إذا استشكلت عليهم مسألة من المسائل أو اختلفوا في حكم من أحكام : « الغسل ، أو الحيض ، أو المعاشرة الزوجية ، أو نحوها » يسألون عن ذلك ، ويرجعون في كل هذا إلى أقوال أمهات المؤمنين .

أفكان | للأمهات المؤمنين فضل عظيم في نشر كثير من الأحاديث والسنن والأحكام ، التي لا يمكن الاطلاع عليها إلا عن طريقهن ، (رضى الله تعالى عنهن) .

وقد كنَّ على جانب كبير من العلم والمعرفة ، والتفقه في الدين والذكاء والفهم ، لا سيما السيدة عائشة (رضى الله تعالى عنها) .

عن ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي (ﷺ) كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وإن النبي (ﷺ) قال : « مَنْ حُسِبَ غُدْبٌ » قالت عائشة : أَوْ لَيْسَ يَقُولُ «الله» تعالى :

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (١)

قالت : فقال : إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ وَلَكِنْ مَنْ ثَوَّقَ الْحِسَابَ يَهْلِك .

وهكذا كان لأمهات المؤمنين أثر بالغ وفضل عظيم في نشر السنة والأحكام ، فقد كان بعض النساء يستحيين من سؤال الرسول (ﷺ) عن أمورهن ولكنهن كن يتعرفن على ما يروى من أمهات المؤمنين لأنهن على صلة دائمة بالرسول (ﷺ) ، ومكانتهن منه كزوجات تمكنهن من التعرف على شتى أنواع الأحكام بلا استثناء ، (فرضوان الله تعالى عليهن) .

ولنساء الإسلام فيهن القدوة والأسوة الحسنة ، وفي معرفة أحكام الدين ، والتعرف على أصول الإسلام .

مَوَاقِفُ فَاصِلَةٌ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ

وفي طريق الدعوة الإسلامية مواقف فاصلة حفل القرآن الكريم بتوجيهات إلهية بشأنها ، وخلال تلك التوجيهات عبر الطريق الطويل - كان القرآن الكريم يرسى معالم الحق ، ويضع الركائز على الطريق .

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا بِمَأْذُونٍ إِلَىٰ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمِمَّا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ

رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُم سُوْءًا
 بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
 وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾

لقد كثر جدال المشركين وتعنتهم ، وكثرت اقتراحاتهم المعاندة
 بإنزال الآيات التي تضطربهم إلى التصديق ، وتأخذهم إلى الإيمان ،
 حيث إنهم عندما يشاهدون ما يقترحون يصدقون بالرسول وليست
 هذه الاقتراحات اقتراحات صادقة ، ولو كانت . كذلك لأجابه
 « الله » تعالى إليها ولكنه سبحانه وهو العليم الحكيم ، الذي يعلم خائنة
 الأعين . وما تخفى الصدور لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في
 السماء ، فهو يعلم أن ما طلبوه ، وما عارضوا به ما هو إلا الجدال
 المقنع في صورة الاقتراح .. لقد طلبوا آية من الخوارق وأحيانا يطلبون
 أن تكون الآية تحويل الصفا والمروة ذهباً وأحيانا أخرى يطلبون أن
 يخبرهم بالغيب وبما سيقع لهم في المستقبل فأمر « الله » رسوله (ﷺ)
 أن يخبرهم بأنه لا يمتلك خزائن القدرة الإلهية التي تشتمل على كل
 شيء ، وأنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم بما سيكون في المستقبل ،
 وأنه ليس ملكاً ليأتى بالأفعال الخارقة للعادة ، إنه ليس كذلك ،
 وليست هذه هي مهمته وإنما هو رسول من عند « الله » لا يتبع إلا

ما يوحيه «الله» إليه ، نعم حدث لرسول الله (ﷺ) معجزات حسية ومعنوية كحنين الجذع ، وكلام الشاة المسمومة التى قُدمت إليه . ومجيئه بالقرآن المعجز لهم من عند «الله» تعالى إلى غير ذلك من المعجزات فلو أنهم كانوا صادقين فيما اقترحوه لآمنوا كما آمن غيرهم من قبل ولكنهم معاندون وكافرون ضالون ، ولا يستوى الكافر الضال الذى عمى عن الحق والمسلم المهتدى البصير بالحقيقة :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥٠) ﴿١﴾

أو لم تدركوا الحق وتعرفوا أنه لا يمكن أن يستوى الضال والمهتدى .. ويأمر «الله» تعالى رسوله (ﷺ) أن ينذر بما أوحاه إليه الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، وأن يعلمهم ، وإنما خص بالإنذار أولئك الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم لأنهم الذين يؤثر فيهم الإنذار ويستجيبون لدعوة الحق بخلاف غيرهم من الكافرين المعاندين الذين لا يجدى معهم إنذار ولا إرشاد فإن ذلك لا يؤثر فيهم فإن حال أولئك الذين يخشون أنه ليس لهم من دون ربهم وخالقهم ولى ولا شفيع فهو وحده نصيرهم وشفيعهم وفى هذا رد وتعريض بالنسبة للكفار الذين زعموا أن آباءهم يشفعون لهم أو أن أصنامهم تشفع لهم وهذا منتهى الضلال والفساد ..

وفي الإنذار لهؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ما يدفع قلوبهم للتوق والحذر والخوف من «الله» وتقواه (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ..

ثم تعرض رسول الله (ﷺ) إلى موقف آخر في دعوته ، ذلك هو موقف الأشراف وكبراء القوم ، لقد رغب الرسول (ﷺ) في إسلامهم ولكنهم أنفوا أن يجتمعوا مع الضعفاء والفقراء ، وأن يجتمعهم مجلس واحد ، ومكانة هؤلاء لا تؤهلهم للجلوس مع سادة قریش الذين يتمتعون بمراكزهم في ذلك المجتمع ، فطلب السادة من رسول الله (ﷺ) أن يطردهم فأبى ، فطلبوا منه أن يخصص لهم مجلسا ، فهم الرسول (ﷺ) بذلك رغبة منه في دخولهم الإسلام ، وهنا ينزل القرآن :

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾^(١)

أنهم مستمررون ودائمون على ذكر «الله» آناء الليل وأطراف النهار يريدون وجه «الله» ، عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي (ﷺ) ستة نفر ، فقال المشركون للنبي (ﷺ) : اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله (ﷺ) ما شاء الله أن يقع .. فحدث نفسه فأنزل «الله» عز وجل :

(١) الأنعام : ٥٢ .

﴿وَلَا تَنْظُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ﴾ ^(١)

أنهم مخلصون له في عباداتهم لا يريدون إلا وجهه سبحانه .
ولما كان البعض قد وصف أولئك المؤمنين المخلصين بما ليس فيهم
وطعن في دينهم وحسبهم ، فوضح «الله» حقيقة الموقف مجردة عن
أى اعتبار آخر وحتى على فرض صحة ما قيل لهم وهو ليس حقا ،
فقد زكاهم ربهم ووصفهم بالعبادة والإخلاص .. لقد وضع القرآن
الحقيقة مجردة :

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٢)

فحساب من رغبوا في طردهم على أنفسهم ما على الرسول (ﷺ)
منه شيء وحساب الرسول (ﷺ) على نفسه ما على هؤلاء منه شيء
فعلام يطردون ، إنه إن فعل ذلك يكون من الظالمين وحشاه (ﷺ)
أن يكون كذلك وإنما هذا من قبيل التعريض والحث للمسلمين
وللدعاة من بعده ألا يفعلوا ذلك .

«وَبِمَثَلِ هَذَا الْاِبْتِلَاءِ ، والاختبار السابق ، فتن «الله» بعض الناس

ببعض وامتحنهم وعاملهم معاملة المختبرين فكان عاقبة هذا الاختبار أن يقول السادة المستكبرون المستنكفون الذين استكبروا بأنسابهم وأموالهم عن أولئك الذين آمنوا من المستضعفين : أهؤلاء من « الله » عليهن من بيننا . أى أهؤلاء الذين أكرمهم « الله » فأصابوا الحقيقة دوننا وكان هذا الاستفهام منهم استنكارا لإيمان من آمن فرد « الله » تعالى عليهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ ^(١)

وفي الرد من الحق تبارك وتعالى تعزيز الحقيقة من آمن وأن نعمة « الله » إنما يستحقها الشاكرون وهو سبحانه أعلم بالشاكرين .. وهذه النعمة - نعمة الإيمان - أجل النعم الإلهية لا ينالها الناس بأموالهم ولا يتفاضلون بجاههم ولا بأحسابهم وإنما بطاعتهم واستجابتهم وبشكرهم لمن خلقهم و « الله » أعلم بمن يكون شاكرا فيهديه إلى نعمة الإيمان ولا يمنع ذلك من أن يكونوا فقراء أو ضعفاء أو عبيدا فميزان التفاضل إنما هو التقوى وطاعة « الله » رب العالمين ، وعن خباب - في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٢)

قال جاء الأقراع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري ،
فوجدوا النبي (ﷺ) قاعدا مع بلال وصهيب وعمار وخباب في أناس
من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حقروهم فأتوه فقالوا : إنا
نحب أن نجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا فإن وفود
العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعباء فإذا نحن
جنناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم
قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتابا . قال : فدعا بالصحيفة ، ودعا
عليا ليكتب ، قال : ونحن قعود في ناحية ، إذ نزل جبريل بهذه
الآية :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

ثم قال :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٢)

(١) الأنعام : ٥٢ .

(٢) الأنعام : ٥٣ .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا
جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۝ ^(١)﴾

فألقى رسول الله (ﷺ) الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو
يقول : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) فكنا نقعد
معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى :

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ۝ ^(٢)﴾

قال : فكان رسول الله (ﷺ) يقعد معنا بعد ، فإذا بلغ الساعة التي
يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم .

وكان رسول الله (ﷺ) بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم
بالسلام وقال :
(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أَبْدَاهُمْ
بِالسَّلَامِ) .

(١) الأنعام : ٥٤ .

(٢) الكهف : ٢٨ .

وعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان ، وصهيب وبلال ، ونفر فقالوا :

وَ «الله» مَا أَخَذَتْ سِيُوفُ «الله» مِنْ عَدُوِّ «الله» مَا أَخَذَهَا ، قال : فقال أبو بكر : أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخٍ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ .. فَأَتَى النَّبِيَّ (ﷺ) فَأَخَذَهُ فَقَالَ :

يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ ، لَئِنْ كُنْتُ أَغْضَبْتَهُمْ ، لَقَدْ أَغْضَبْتُ رَبَّكَ « فَأَتَاهُمُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : يَا أُخُوَّاهُ أَغْضَبْتُكُمْ ؟ قَالُوا : لَا .. يَعْفِرُ «الله» لَكَ يَا أَخَانَا .

وهكذا نرى إلى أى مدى عنى الإسلام بحقوق الإنسان وتكريمه ومنذ متى ؟ قبل أن تعرف الإنسانية حقوق الإنسان بآماد طويلة ، إن القرآن الكريم لم يكتف بأمر رسول الله (ﷺ) بعدم طرد أولئك المستضعفين من المؤمنين ، وإنما أمره أن يقول لهم : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) تطيبا لخواطهم وقلوبهم ، وتكريما لهم ..

وقيل : إن هذا السلام هو من جهة «الله» سبحانه وتعالى ، أى أبلغهم منا السلام ..

ولا يقتصر الأمر على عدم طردهم ، ولا يقتصر على تبليغ السلام لهم ، بل إنه يحمل البشرى لهم من «الله» على يد رسوله (ﷺ) ، بأن «الله» تعالى أوجب على نفسه الرحمة بإيجاب فضل وإحسان ، أو كتب ذلك عنده فى اللوح المحفوظ بشرى لهم برحمة «الله» التى

سبقت غضبه ، والتي وسعت كل شيء ، والتي كتبها للذين يتقون
ويؤتون الزكاة والذين هم بآياته يؤمنون .

وعلى ضوء هذه الرحمة يستبشر أولئك المؤمنون برحمة «الله» ،
وبنعمة منه وفضل ، وأنه من عمل سوءا بجهالة فكان فعله كفعل
الجاهلين ، لأن من يفعل ما يؤدي إلى الضرر مع علمه بهذا فقد فعل
فعل أهل الجهل ، أو أنه عمل ذلك وهو جاهل بما يتعلق بذلك من
الضرر وما يترتب عليه .. فإن من عمل ما عمل ثم تاب بعد ذلك
وأصلح ما كان قد أفسد ، وعاد إلى ربه ورجع إلى صوابه ، وعمل
صالحا ، وأطاع ربه ، فإنه عندئذ سيجد ربه غفورا رحيفا ، وسعت
رحمته كل شيء وسبقت رحمته غضبه ..

يقول الرسول ﷺ :

(لما قَضَى « الله » عَلَى الْخَلْقِ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ
الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي)^(١) .

وبمثل هذا التفصيل والتبيين ، فصل « الله » تبارك وتعالى الآيات
وبينها ، لتستبين سبيل المجرمين ، وتتضح ، وحيثما استبانة واتضحت
تتضح وتستبين طريق المؤمنين ، وبضدها تتميز الأشياء ..

وبهذا ندرك عناية المنهج القرآني الحكيم بتوضيح السبل حتى
لا تلتبس الحقيقة ، وحتى لا يضل الطريق أحد .

(١) رواه مسلم .

مَوْتُ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ ، وَأَبَى طَالِبٍ

قطع المسلمون - قبل الإسراء والمعراج - فترة زمنية لاقوا فيها من الأذى والاضطهاد ما تنوء بحمله الرواسي وأطل عليهم عام من الأعوام سمي « بعام الحزن » فقد سقط فيه ركنان من أهم الأركان التي كانت سنداً للرسول (ﷺ) .

أولاً : عمه أبو طالب الذي ناصر الرسول (ﷺ) ، ولم يأل جهداً في كل ما يحتاجه في سبيل تأمين دعوته ، وقد حزن الرسول (ﷺ) كثيراً لموته ، فقد كان الحصن المنيع الذي يرد سفاهة السفهاء ، وجهالة الجُهلاء وبطش المتجبرين ، وقد روى أن رسول الله (ﷺ) قال : « مَا نَأَلْتُ مِنْى قُرَيْشٍ شَيْئاً أَكْرَهُهُ حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ » .

ومع ما كان عليه أبو طالب من مخالفة الرسول (ﷺ) في الدين إلا أنه ظل قويا في دفاعه وانتصاره للرسول (ﷺ) ، وَعِنْدَمَا حَضَرَتْهُ الرَّفَاةُ قَالَ : « يَا مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ أَطِيعُوا مُحَمَّدًا وَصَدِّقُوهُ تُفْلَحُوا وَتُرْشَدُوا » ، فقال له الرسول (ﷺ) : « يَا عَمُّ تَأْمُرُهُمْ بِالنَّصِيحَةِ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَدَعُوهَا لِنَفْسِكَ ؟ فَأَجَابَهُ قَائِلاً : فَمَا تُرِيدُ يَا بَنَ أَخِي ؟ » .

قال (ﷺ) : أُرِيدُ أَنْ تَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فقال : يَا بَنَ أَخِي

قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ صَادِقٌ غَيْرُ أَلِيٍّ أَحْشَى أَنْ أَتَهُمَ بِالْخُوفِ عِنْدَمَا حَانَ
حِينِي ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَا تَكْبُتُ نَصِيحَتَكَ لِأَقَرِّ عَيْنَيْكَ اللَّتَيْنِ أَرَى فِيهِمَا
حُزْنَكَ ثُمَّ مَاتَ .

ثانيا : زوجه خديجة (رضى الله تعالى عنها) ، وهى ذات التاريخ المجيد
فى نصرة الرسول (ﷺ) آمنت به حين كذبه الناس وواسته بماها
وفكرها وكل قواها وعندما رجع الرسول (ﷺ) يرجف فؤاده
ودخل عليها ، وقال : زُمَّلُونِي زُمَّلُونِي ، فزُمَّلوه حتى ذهب عنه
الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لَقَدْ حَشِيتُ عَلَى نَفْسِي »
فقال له خديجة : « كَلَّا وَاللَّهِ لَا يُحْزِنُكَ » اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ
الرَّحْمَ وَتَحْمِلُ الْكُلَّ وَتَكْسِبُ الْمَغْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى
نَوَائِبِ الْحَقِّ » إنه إِذَا لَفِكَرٌ ثاقبٌ حصيف ، وفطرة نقية استنبطت
على أضوائها عظمة الرسول (ﷺ) ، ومهمته الشريفة التى ألقيت
على عاتقه من السماء ليبلغها الناس .. هذه المثالية الفذة ، وهذا الحنان
الداقيق فقدته أيضا فى نفس العام .

ومن هنا ، وبعد فقد هذين الركنين انهارت سفاهات الكفر ،
وتوجهت بكل ضراوتها وصلفها إلى الرسول (ﷺ) وإلى المسلمين ،
عن ابن مسعود قال : « بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ
وَأَصْحَابُهُ جُلُوسٌ ، وَقَدْ لُحِرَتْ جُزُورٌ بِالْأَمْسِ . فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ :
أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلا جُزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ بَيْنَ كَتْفَي مُحَمَّدٍ -

(ﷺ) إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد
النبي (ﷺ) وضعه بين كتفيه ، فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل
على بعض وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهره ،
والنبي (ﷺ) ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر
فاطمة ، فجاءت - وهي جويرية - فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم
تشتهم ، فلما قضى رسول الله (ﷺ) صلاته رفع صوته ثم دعا
عليهم ، وكان إذا دعا ، دعا ثلاث مرات وإذا سأل سأل ثلاثا ،
ثم قال : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ » ثلاثا ، فلما سمعوا صوته ذهب
عنهم الضحك وخافوا دعوته ، ثم قال : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ يَا أَبَى جَهْلٍ
بن هِشَام ، وَعُتْبَةَ بن رَيْعَةَ ، وَشَيْبَةَ بن رَيْعَةَ ، وَالْوَلِيد بن عُتْبَةَ
وَأُمَيَّة بن حَلَف ، وَعُقْبَةَ بن أَبِي مَعِيْط ، وذكر السابع ولم أحفظه ،
فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا (ﷺ) بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَى صَرَغَى
يَوْمَ بَدْرٍ ، ثُمَّ اسْجَبُوا عَلَى الْقَلِيبِ قَلِيبَ بَدْرٍ » (١) .

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد .

فى الطائف

اتجه الرسول (ﷺ) - بعد ذلك - شرق مكة ، قاصدا الطائف ليلتمس العون والمنعة ، فلما وصلها ، أبدوا له من العناد والإنكار لدعوته ما يدل على فساد طباعهم وعقائدهم ، وإصرارهم على ضلالهم القديم ، فقطع الرسول (ﷺ) عشرة أيام صابرا محتسبا على يجد قلوبا تلين لدعوته وآذانا تسمع ندائه ، ولكن القوم ظلوا فى ضلالهم يعمهون ، وقابلوه بإصرار دائم على الإنكار ، وزادوا ذلك بإيذائه فأسرع بالرحيل عنهم قائلا لهم : « إذا أبيتُمْ فاكتموا على ذلك حتى لا يذاع النبأ فى مكة » فتندلع شماتهم ، ولكن القوم تجردوا من أبسط مظاهر المروءة والرحمة ، فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، واصطفوا له يشيعونه بالسباب ، ويقذفونه بالحجارة حتى سال الدم الشريف من أقدامه (ﷺ) فذهب إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وجلس إلى ظل شجرة من عنب حتى اطمأنت أنفاسه ، فصعدا للسماء طاهرة مبرورة هاتفا من أعماقه : « اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ جِيلِي وَهَوَايَ عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي إِلَى مَنْ تُكَلِّبُنِي إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلِكْتَهُ أَمْ إِلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ

عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تَنْزَلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُجِلَّ عَلَيَّ
سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تُرَضَى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا
بِكَ» (١) .

وفي هذه اللحظات تجيش العاطفة في قلب كل من عتبة وشيبة
ابنى ربيعة فإذا بهما يرسلان غلامهما النصراني « عَدَّاسًا » بقطف
عنب إلى الرسول (ﷺ) فلما وضع الرسول (ﷺ) يده فيه قال :
بسم « الله » ثم أكل ونظر عدَّاس قائلًا : هذا كلام لا يقوله أهل
هذه البلاد ، فسأله الرسول (ﷺ) من أي البلاد أنت
وما دينك ؟ قال : أنا نصراني من « نينوى » ، فقال الرسول
(ﷺ) : أومن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له :
وما يدريك ما يونس ؟ قال الرسول (ﷺ) : ذلك أخي كان نبيا
وأنا نبي ، فأكبَّ عدَّاس على يدي رسول الله (ﷺ) ورجليه
يقبلهما ، فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده
عليك ، فلما جاء عدَّاس قال له : ويحك ما هذا ؟ قال : ما في
الأرض خَيْرٌ مِنْ هَذَا الرجل ، وقفل الرسول (ﷺ) راجعا إلى مكة
فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ، فقال :
يا زَيْدُ إِنَّ « الله » جَاعِلٌ لِمَا تَرَى مَخْرَجًا ، ثم توجه بعد ذلك إلى حراء
وأرسل زيد بن حارثة إلى الأخنس ليجيره فأبى ، ثم بعته بعد ذلك

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير .

إلى سهيل فأبى أيضا ، ثم بعثه إلى المطعم بن عدى فأجابه ، وخرج
المطعم وأهله حتى أتوا المسجد ، وطاف بالبيت سبعا ، وهكذا نرى
النخوة العربية ، وسمات المروءة والنجدة التى اتسم بها المطعم كأبى
طالب حيث قام بما قام به وهو على غير دين الإسلام .

الرَّجُوعُ مِنَ الطَّائِفِ

ولما لم يجد رسول الله (ﷺ) - في الطائف - قلوبا متقبلة لدعوته ، ولا آذانا تصغي لهدايته ، عادَ إلى مكة المكرمة وهو مهموم مما لاقاه من القوم من عنت وجحود ، وتكذيب وسفاهة .. فلم يستفق الرسول (ﷺ) إلا وهو بقرن الثعالب ، ورفع رأسه فإذا هو بسحابة قد أطلته ، وإذا فيها جبريل عليه السلام .. قال (ﷺ) : **فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ «الله» قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَارَدُوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ . قَالَ : فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ :**

«يَا مُحَمَّدُ إِنَّ «الله» قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ ؟ إِنَّ شِئْتَ أَطِيقُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ»^(١) فقال رسول الله (ﷺ) : **«بل أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ «الله» وَحده وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(٢)**.

وفي بعض الروايات : فقال ملك الجبال : **أَلَيْتَ كَمَا سَمَّاكَ رَبُّكَ رَوُوفٌ رَحِيمٌ»**.

(١) الأخشبان هما جبلان في مكة المكرمة أما أحدهما : فهو جبل أبي قبيس وأما الثاني : فهو المقابل له ويسمى قعيقعان .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

الْعُودَةُ إِلَى مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ، وَاسْتِمَاعَ الْجَنِّ لِلْقُرْآنِ بِوَادِي نَخْلَةٍ

بعد رحلة الطائف وملاقاه الرسول (ﷺ) فيها من معاناة ومن همٍّ وغمٍّ، وتعبٍ ونصبٍ، توجه إلى مكة ..

فقال له زيد بن حارثة : كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ أُخْرِجُوكَ ؟
فقال (ﷺ) : يَا زَيْدُ إِنَّ « الله » جَاعِلٌ لِمَا تُرَى مَخْرَجًا فَلَمَّا كَانَ
بنخلة ، صرف «الله» إليه نفرا من الجن ، قال «الله» تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ
﴿٢٩﴾ قَالُوا يٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٣٠﴾ يٰقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ
ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ۝ (١)

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال : ما قرأ رسول الله (ﷺ) على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله (ﷺ) في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب .

قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغارها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغارها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله (ﷺ) وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۚ ﴾^(١) وأنزل «الله» على نبيه (ﷺ) :

﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ۚ ﴾

(١) سورة الجن : ١ - ٢ . والحديث رواه البيهقى فى «دلائل النبوة»

وكان الجن الذين صرّفهم « الله » إليه سبعة من جن نصيبين من أرض الجزيرة بين العراق والشام . وكانوا سبعة جاءوا حين كان (ﷺ) يتهجد من الليل أو حين كان يقرأ القرآن في صلاة الفجر . فاستمعوا إلى القرآن وآمنوا وأجابوا كما قص القرآن الكريم نبأهم في سورة (الجن) .

لقد استمع الجن إلى القرآن وآمنوا على الفور ، ودعوا قومهم إلى الإيمان ، ولم يكن الرسول (ﷺ) قد شعر بهم ولا باستماعهم وإنما أنبأه رب العزة سبحانه وتعالى عن طريق الوحي ، وأمر « الله » تعالى رسوله (ﷺ) أن يخبر قومه الذين كذبوا ولم يؤمنوا ، ويوضحهم بأن الجن كانوا خيرا منهم وأسرع إلى الإيمان .

﴿ قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ ﴾ (١)

وفي بيان القرآن الكريم لما كان عليه الجن من الإيمان بالقرآن ، توبيخ وتقريع للذين لم يسارعوا بالإيمان من العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم .

كما حكى القرآن الكريم عن الجن استقبالهم لدعوة التوحيد بالإيمان . ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ ﴾ (٢)

أى تعالت عظمة « الله » سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فليس له زوجة ولا ولد ، لأن هذا التزاوج والتناسل من صفات البشر الذين يعترهم النقص والحاجة و «الله» منزّه عن الحاجة وعن النقائص .

وأن المؤمنين من الجن كانوا يتبرءون من إبليس ومن قوله البعيد عن الحق والعدل والذى يدعوهم إلى الشر :

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۖ﴾^(١)

كما أعلنوا أنهم قبل ذلك كانوا يظنون أنه من المستبعد أن ينسب أحد من الإنس أو الجن إلى «الله» تعالى مالا يليق به من الافتراء والكذب . ويزعم أن الله له صاحبة أو ولد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ﴾^(٢)

كما أخبر القرآن الكريم أن بعض الإنس كانوا يستجيرون ببعض الجن ، فكان الرجل إذا أمسى فى وادٍ قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، فإذا سمعوا ذلك استكبروا وقالوا : سدنا الإنس والجن ، فزاد الإنس الجن كبرياء وعتوا :

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ

مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ﴾^(٣)

وأن كفار الإنس زعموا - زورًا وبهتانًا - كما زعم بعض الجن أن «الله» سبحانه وتعالى لن يبعث أحدًا بعد الموت أى أنهم أنكروا البعث : ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (١)

وعندما أراد الجن أن يبلغوا السماء ، من أجل أن يروا ما فيها ويستمعوا إلى كلام أهلها ، فوجئوا أن السماء قد امتلأت بملائكة «الله» تعالى الذين يحرسونها وبالشهب المحرقة التى تقع على من يحاول أن يقترب منها ، وقد كان الجن قبل بعثة سيدنا محمد (ﷺ) يطرقون السماء ليستمعوا إلى أخبار أهلها ثم يقوموا بتوصيل ذلك إلى الكهان ، وأما بعد بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) فإن من حاول من الجن ذلك أحرقته الشهب وأهلكته ، ثم قالوا لا نعلم سر ذلك وما «الله» فاعل بأرضه وبسكانها . أشتر أريد بهم ؟ وهل امتلأت السماء بالملائكة الحارسين وبالشهب لعذاب سيقع على أهل الأرض أم لخير لهم ؟ بأن يبعث فيهم رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور .

قال الحافظ ابن كثير : وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك وهو الذى حملهم على تطلب السبب فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فرأوا رسول الله (ﷺ) يقرأ بأصحابه فى الصلاة فعرفوا أن هذا هو الذى حفظت من أجله السماء فدنوا منه حرصا على سماع القرآن ثم أسلموا .

الإِسْرَاءُ

قال الله تعالى :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِلْزَّيْرِ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾^(١)

وفي هذه الآية الكريمة أشار النص القرآني المجيد إلى رحلة الإسراء مفتتحا الحديث عنها بتسبيحه جل شأنه مبتدئا بكمال تنزيه الذات العلية عن كل نقص ، وموضحا الحجة الدامغة الصريحة على أنها معجزة فوق مستوى العقل البشري ، وذلك بإسناد الفعل إلى «الله» العلى القدير ، ولما كان في الإسراء ما فيه من سمو مكانة الرسول (ﷺ) ، وزيادة تشريفه ، فقد وصفه «الله» تعالى بأسمى الأوصاف ، وأكرم المقامات ، وهى قوله تعالى : «بِعَبْدِهِ» فهو الذى خلصت عبوديته ، وكمله ربه ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وتوجه بكمار الأخلاق ، قال تعالى :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾﴾^(٢)

وقال (ﷺ) : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» . لقد أسرى

(١) الإسراء : ١ . (٢) القلم : ٤ .

به ليلا ، فى وقت السكون وفى هدأة الحياة وطمأنينة الأفق الكونى فى جزء محصور من الليل ، فأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك «الله» حوله بكثير من النعم السابغة الظاهرة والباطنة ، المادية منها والروحية ، فحول هذا المسجد العظيم أخرج «الله» تعالى كثيرا من خيرات الأرض ونباتاتها الطيبة الكثيرة التى تنفع الناس ، كما أن حوله من البركات الروحية والمعنوية ما يروى ظمأ النفوس المؤمنة ، فهو مهبط الأنبياء والملائكة .. وقد كشفت الآية الكريمة عن آلاء «الله» التى توافدت على حبيبه (ﷺ) ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأَنْزَلْنَاهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١)

وفى تلك الآيات التى أراها «الله» لحبيبه ومصطفاه (ﷺ) ما يدل على كمال قدرة «الله» سبحانه وتعالى مما لا يسوغ لمنكر جاحد أن يتصدى لهذه المعجزة الخارقة بالإنكار ، لاسيما وقد أمد «الله» تعالى الفكر البشرى اليوم بفيض غامر من العلوم والمعارف التى جعلته يرسل الطائرات فى الأجواء ، ويبعث سفن الفضاء فترسو على القمر ، فكيف ينكر إنسان على خالق القوى والقدر ، ومدبر السموات والأرض لإسراء برسوله (ﷺ) ؟ .

ومما ينبغى الإشارة إليه أن الإسراء والمعراج ليسا معجزة خاصة

بتأييد الدعوة ، وإنما المعجزة التى تحدى بها القوم هى القرآن الكريم ،
أما هذه المعجزة فهى إحدى الخوارق وفى الوقت نفسه تكريم ، أى
تكريم لخاتم المرسلين (ﷺ) .

وكان لهذه المعجزة أثرها ، إذ زادت المؤمنين إيماناً وبقينا
واستبشروا برعاية «الله» تعالى لهم وزادت الكافرين رجساً وفتنة ، قال
تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (١)

وهكذا كان لهذه المعجزة أثرها بما أفاءه «الله» تعالى على رسوله
(ﷺ) من الآيات الكبرى التى رآها فى هذه الرحلة المباركة .

ثم رجع رسول الله (ﷺ) يُحَدِّثُ بما رأى ابنة عمه أم هانئ
وحاولت معه ألاّ يخبر أحداً من الكفار بذلك ولكن الرسول (ﷺ)
صمم أن يحدث بما رأى من نعم «الله» سبحانه وتعالى ، فذهب إلى
جوار الكعبة مفكراً فى خشوع وابتهال فمر به أبو جهل ، فقال له :
هل من خبر ؟ فقال : نعم ، قال : وما هو ؟ فقال : إلى أُسْرَى بِنَى
اللَّيْلَةِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، فقال : إلى بيت المقدس ؟ فقال : نعم ،

قال أبو جهل : أرأيت إن دعوت قومك لتخبرهم أم تخبرهم بما أخبرتنى به ؟ فقال : نعم ، فنادى أبو جهل : هيا يا معشر قريش فاجتمعوا ، فقال للرسول (ﷺ) : أخبر قومك بما أخبرتنى به ، فقال الرسول (ﷺ) : إِنَّهُ أُسْرِي بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، فكذبوه واستبعدوا ذلك ، وقالوا لأبي بكر : إن صاحبك يقول كذا وكذا ، فقال : إِنْ كَانَ قَدْ قَالَ فَقَدْ صَدَقَ ، قالوا : تصدقه على ذلك ؟ قال : إِنِّي أَصَدَّقُهُ عَلَى أَنْبَعِدَ مِنْ ذَلِكَ : أصدقه عَلَى خَبَرِ السَّمَاءِ .

وقد تهادى القوم في لجاجهم وخوارهم ، ويسألون رسول الله (ﷺ) في تعنت وجفاء عن بيت المقدس ومنهم من كان رآه ، وظنوا أنهم بهذه الأسئلة سيوقعون الرسول (ﷺ) في الحرج ، ولكنه (ﷺ) - وهو المؤيد من قبل ربه - قد وصف لهم بيت المقدس وصفا كاملا في غاية الدقة وأخبرهم عن آياته يقول الرسول (ﷺ) : فَجَعَلْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ فَأَلْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضَ الشَّيْءِ فَعَجَلَنِي اللَّهُ لِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ جَعَلْتُ أَلْظُرُّ إِلَيْهِ دُونَ دَارِ عَقِيلٍ وَأُنْعَتُهُ لَهُمْ ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب ، ثم قالوا : أخبرنا عن غيرنا فهي أهم إلينا ، هل لقيت منها شيئا ؟ قال (ﷺ) : نَعَمْ مَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِي فُلَآنٍ وَهِيَ بِالرُّوحَاءِ وَقَدْ فَقَدُوا بَعِيرًا لَهُمْ وَهُمْ فِي طَلَبِهِ ، وَفِي رِحَالِهِمْ قَدَحٌ مِنْ مَاءٍ فَأَخَذْتُهُ وَشَرِبْتُهُ وَوَضَعْتُهُ كَمَا كَانَ ، فَاسْأَلُوا هَلْ وَجَدُوا الْمَاءَ فِي الْقَدَحِ حِينَ رَجَعُوا ؟ وقالوا : هذه آية ، قال :

مَرَرْتُ بِعَيْرِ بَنِي فُلَانٍ وَفُلَانٍ رَاكِبَيْنِ ، فَتَفَرَّ بَعِيرُهُمَا مِنِّي فَأَلْكَسَرَا ،
فَأَسْأَلُوهُمَا عَنْ ذَلِكَ قَالُوا : هذه آية أخرى ...

ثم أخذوا يسألونه عن العدة والأحمال ودقائق الملابس فوصفها
أكمل وصف ، وقال لهم : ثَقُدْمْ يَوْمَ كَذَا مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَفِيهَا
فُلَانٌ وَفُلَانٌ يَقْدُمُهَا جَمَلٌ أَوْزَقٌ عَلَيْهِ غَرَارَتَانِ مُحِيطَتَانِ ، قالوا :
هذه آية أخرى . ومع وضوح هذه الأدلة ، فقد لج القوم في عنادهم
ولم يصدقوا تلك المعجزة الواضحة ، فقد طمس «الله» على أبصارهم
وبصائرهم :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴾ (١)

(١) النور : ٤٠ .

المِعْرَاجُ

يظهر للباحث في قصة الإسراء والمعراج أن قصة المعراج لم تذكر مع قصة الإسراء في السياق القرآني الحكيم ، مع أنهما حدثتا في ليلة واحدة ، وذلك إنما كان تنبيها لقلوب القوم وفتحاً للأفق الفكري لديهم حتى يدركوا الحقيقة عن طريق إيمان سليم ، تتضح أدلته أمام أعينهم تدريجياً بالإسراء أولاً ، وعندما تتضح الحقيقة بأدلتها الناصعة على صدق الرسول (ﷺ) في وصفه لبيت المقدس وللعير ، وما إلى ذلك من الدلائل ، فتأنس القلوب وتثق بالمعجزة فيحدثهم - بعد ذلك - القرآن الكريم عن بقية الرحلة ، وعن قصة المعراج ، قال تعالى :

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ ٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ ٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ ٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۖ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۖ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ ٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ ١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۖ ١١ أَفَتَمُرُّونَهُ عَلَىٰ مَائِرِيٍّ ۖ ١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ ١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ ١٤ عِنْدَ هَابِجَةِ الْمَأْوَىٰ ۖ ١٥

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى
مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾ ﴿١﴾ .

وقد سبق هذه الرحلة إعداد إلهي لنفس الرسول (ﷺ) فجاءه جبريل (عليه السلام) وشق صدره الشريف وقلبه العظيم ، ومنحه «الله» سبحانه من القوة الروحية والإعداد الإلهي ما يعينه على تحمل تلك الأخطار ، وما يتغلب به على كل عامل من العوامل المانعة للعروج ، والسمو إلى الملأ الأعلى ، بحيث لا يتعارض مع النواميس الكونية ، والضغط الجوي ، بل يكون في قدرة أسمى هي مدد من الكبير المتعال .

الرُّدُّ عَلَى مَا أُثِيرَ مِنْ مَزَاعِم :

ومعجزة الإسراء والمعراج واضحة وضوح الشمس لمن وقف على نصوص القرآن والسنة ، بأنها كانت يقظة بالروح والجسد معا ، ولا عبرة بما أثير حولها - قديما وحديثا - من مزاعم واهية لا أساس لها من الصحة ، فإن ما نسبوه إلى السيدة عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت : «مَا فَقَدْ جَسَدَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)» فهذه الرواية غير صحيحة سنداً ومتناً ، ولا أصل لها ، فإن الثابت أنها لم تكن مع

الرسول (ﷺ) ، ولم يضمهما بيت .. فالإسراء والمعراج معجزة تمت في مكة قبيل الهجرة والنبي (ﷺ) ، إنما بنى بالسيدة عائشة (رضى الله تعالى عنها) بعد ذلك في المدينة .

وأما ما أثير حول الإسراء والمعراج من أن ذلك كان رؤيا منامية فذلك ادعاء باطل ، فكيف يكون رؤيا وقد وقفوا يعارضون ويجادلون ، أليسوا يسلمون بالأحلام والرؤيا المنامية ؟

فلو كانت رؤيا لما أثير حولها كل هذا الضجيج - وقد جاء التعبير القرآني الحكيم عندما تحدث عنها واضعًا كل الوضوح - فبدأها بتنزيه «الله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ...» وهذا لا يكون إلا في الأمور الهامة العظيمة الأثر ، وكلمة «أَسْرَى» موضوعة في اللغة العربية على السير ليلا بالحركة المحسوسة في اليقظة ، والتنصيص على ذكر الرسول (ﷺ) بقوله «يَعْبُدُهُ ..» يؤكد ذلك ، فالعبد إنما يطلق على الآدمي جسدا وروحا ، وهذا ما يعنيه الأسلوب القرآني في التعبير «يَعْبُدُهُ ..» الذي تكاملت فيه أسمى المقامات عند ربه سبحانه وتعالى .

الغَايَةُ مِنْ هَذِهِ الرِّحْلَةِ

١ - حدد القرآن الكريم الغاية السامية من هذه الرحلة في قوله تعالى :

﴿لِزِيَارَةِ مَنْ آيَنُنَا إِلَهُهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ^(١)

وفي هذه الغاية وهي رؤية الآيات الإلهية تكريم وتقدير له (ﷺ) ، بعد أن لاقى من أذى القوم وعتهم ، فأوقفه «الله» تعالى على مكانته العليا التي أعدها له وعلى آيات ملكوته العظيم .

٢ - كما أن هذه الرحلة كانت استعدادًا وإعدادًا ، تأهب فيه الرسول (ﷺ) والمسلمون لمراحل قادمة ، وأشواط ستقطعها الدعوة الإسلامية في سبيل «الله» .. وكلها كفاح وجلد ، وتبدأ بالهجرة في سبيل «الله» ، وتواصل الجهاد رافعة راية «الله» ، ناشرة دعوة السماء بين أرجاء العالم .

٣ - وحفلت عبر هذه الرحلة المباركة بمعان كثيرة تكشف عن فضائل عديدة لها أثرها في المحيط الإسلامي وتسمو بالأمة إلى مرضاة ربها ، كما كشفت عن رذائل بشعة في ارتكابها هوان وضياح للأمم والشعوب دنيا أخرى فأوضحت الرحلة نماذج عديدة ، وصورا بارزة محسوسة لأصحابها من الشباب

(١) الإسراء : ١ .

- ١٠١ -

والعقاب ، ومثوبة «الله» تعالى للطائعين وعقابه للمذنبين ، وأطلع الحبيب حبيبه على أسرار من الملكوت الأعلى الذى لم يصل إليه سواه .

ووضحت الرحلة قيمة الحياة الدنيا ، وما ينبغي وأن يكون الناس فيها سالكين رحلتها على هدى وإخلاص بعيدا عن التكالب والتناحر .

كما وضحت صور الحلال والحرام : فبينت مثوبة المجاهدين والمخلصين وعقاب المنافقين والزناة وأكلة الربا ، وخطباء الفتنة وأكلة مال اليتيم وما إلى ذلك .

٤ - واستهدفت الرحلة كذلك غاية عظيمة ، وهى وحدة تلك الأماكن المقدسة التى أشارت إليها الآية الشريفة مبينة شرف المسجدين حتى تتوطد الصلات وتتوثق العرى ، فيتوحد الشمل ويجمع المسلمون أمرهم .

- لماذا لم تكن المعجزة على مرأى من الناس ؟

شاء «الله» الحكيم الخبير أن تحدث معجزة الإسراء والمعراج ليلا ، وعلى غير مرأى من الناس ، وكان من اليسير أن تحدث أمامهم ولكن حكمة «الله» تعالى اقتضت أن تكون على غير مرأى منهم ، فلو حدثت أمامهم لرموها بالسحر كما كان شأنهم بالنسبة لغيرها من المعجزات ، كانشقاق القمر وغير ذلك .

بل لقد سبق منهم القول بالتكذيب حين حكى «الله» قولهم :
« وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ » وقال تعالى :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾^(١)

كما أن هذه المعجزة لم يكن المراد بها دعوتهم بل تكريم الرسول ﷺ وإعدادة وإسباغ النعم الإلهية عليه ظاهرة وباطنة .. ومع ذلك فقد كان من الملابس ما يظهرها أمام أعينهم بعد ما حدثهم بها ، وسألوه عن الكثير فأجابهم بما هو معجز ، ولكنهم استنكفوا أن يصدقوه ، وظلوا على كفرهم .

ثم ألم تأتهم المعجزات من قبل كثيرة لا حصر لها ، وعلى رأسها القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

الْحِكْمَةُ فِي كَوْنِهَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

حظى بيت المقدس فترات طويلة كان فيها مهبطا لوحى السماء ، وموطنا لانبثاق النبوات والمعجزات من سمائه ، فلما قضت الحياة مسيرتها ، وألقت السماء بالأمانة الإلهية والرسالة الخاتمة الى خاتم النبيين (ﷺ) قام بأمر «الله» يصل الحاضر بالماضى ويقطع رحلة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ربطا لرسالات السماء السابقة التى عطرت أرضه ، وباركت حوله ، وقد كرمه «الله» تعالى فى هذا الموطن حيث التقى فيه بالمرسلين من قبله فصلى بهم ركعتين فيه ، إشارة إلى أن الإسلام هو الدين الخاتم :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۚ ﴾^(١)

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ۚ ﴾^(٢)

والرسول (ﷺ) هو المتمم لمكارم الأخلاق ، والمكمل لبناء دعوات السماء ، قال (ﷺ) : « مَقْلَى وَمَقْلُ الْأَنْبِيَاءِ قِبَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ : هَلَّا وَضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ ؟ فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَائِمُ النَّبِيِّينَ »^(٣)

(٢) آل عمران : ٨٥ .

(١) آل عمران : ١٩ .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم .

الجهاد في ضوء الرحلة المباركة

أبرزت هذه الرحلة المباركة مكانة الجهاد والمجاهدين بحيث يرى كل مؤمن من خلال ما ألقته الرحلة من أضواء مثوبة المجاهدين في سبيل «الله» ، وما أفاءه «الله» تعالى عليهم من مثوبة وفضل ، فقد مر رسول الله (ﷺ) في رحلته على قوم يزرعون ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال لجبريل عليه السلام : مَا هَذَا ؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل «الله» تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَمَا أَفْقُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلُفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

وفي هذا النموذج المحسوس لمثوبة الجهاد وفضله ، نقف على مكانة المجاهدين ، وتحيش في نفوسنا عواطف الإيمان دافقة حتى تتجمع القوى ، وتتحد الطاقات على أسس من الإيمان الصادق ، والعمل الخالص ، لنطهر بقاعنا ، ونسترد مقدسات طال وقوعها تحت أيدٍ دنسة ، فهذا هو ذا المسجد الأقصى ثالث الحرمين ومسرى رسولنا (ﷺ) يحفز فينا ألهم ويستنهض بيننا المشاعر ،

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَفْتُمُوهُمْ وَآخِرُ جَوْهَرٍ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۖ ﴾ (١)

وقال (ﷺ) موضحاً مكانة المساجد الثلاثة : « لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَذَا ، وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى »^(١) ، كما أبرز فضائل كل واحد منها بما له عند « الله » من مكانة ، وما للعبادة فيه من مثوبة مضاعفة ، وأجر وافر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِأَلْفِ صَلَاةٍ ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِخَمْسُمِائَةِ صَلَاةٍ »^(٢) .

فَرِيضَةُ الصَّلَاةِ .. فِي ضَوْءِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ :

رسمت رحلة الإسراء والمعراج منهاجاً مشرقاً للحياة ، وأخذت مسيرتها المباركة تقدم قيماً رشيدةً وحِكْماً دقيقةً ، وطالعت العالمين بمعجزة باهرة سبقت تقدم العلم الحديث واكتشافاته ، وخرقت النواميس الطبيعية ، وتحدثت دورة الزمن ، ويومها تمحصت قلوب ، وتفجرت مبادئ ، وتماسكت قوى الإيمان الصادق لتواكب قافلة الدعوة في نضالها حتى يحق «الله» الحق ويطل الباطل ولو كره الكافرون .

وقد كشفت هذه الرحلة عن صور ونماذج لمن اعتدل بفطرته ولمن حاد عنها ، ومن بين ما أُلْقَتْ عليه الرحلة من أضواء ركن من أركان الإسلام وفريضة من أهم الفرائض وهي : « الصلاة » .

(١) رواه أحمد البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ولفظه: « صلاة في المسجد الحرام مائة ألف صلاة ، وصلاة في مسجدى ألف صلاة ، وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة » ورواه أحمد وابن ماجه باختلاف يسير .

- ١٠٦ -

والصلاة كانت من بين ما أوحى « الله » به إلى نبيه (ﷺ) ، ومن بين ما افترضه ليلتها على نبيه ..

أخرج الإمام أحمد قال : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله (ﷺ) قال : « أَتَيْتُ بِالْبُرَاقِ ، وَهُوَ ذَابَّةٌ أَيْضُ ، فَوْقَ الْخِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَصْنَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ ، فَرَكِبْتُهُ فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدِّسِ فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرِبُطُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ حَمْرِ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَأَحْتَرْتُ اللَّبَنَ .

فقال جبريل : أَصَبْتَ الْفُطْرَةَ ، قال : ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ . قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قال : أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِأَدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِابْنَتِي الْخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى فَرَحَّبَا بِي وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ . قِيلَ :

وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحَسَنِ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، يَقُولُ « اللَّهُ » تَعَالَى :

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (١)

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ . فَقِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ

أَلَيْتَ ؟ قال : جَبْرِيلُ ، قيل : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ :
وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ فقال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِذَا هُوَ مُسْتَبِدٌّ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ
كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى
سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، فَإِذَا أَوْرَاقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقُلَالِ ،
فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ «اللَّهِ» مَا غَشِيَهَا ، تَغَيَّرَتْ ، فَمَا أَخَذَ مِنْ خَلْقٍ
«اللَّهُ» . يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، قَالَ : فَأَوْحَى «اللَّهُ» إِلَيَّ
مَا أَوْحَى ، وَقَدْ قَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، خَمْسِينَ صَلَاةً ،
فَنَزَلْتُ حَتَّى اتَّهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، قَالَ : مَا قَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ ؟
قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ
فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، وَإِنِّي قَدْ
بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَيْرِيهِمْ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي ، فَقُلْتُ :
أَيُّ رَبِّ حَقِّفَ عَنْ أُمَّتِي فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَنَزَلْتُ حَتَّى اتَّهَيْتُ
إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : مَا فَعَلْتَ ؟ فَقُلْتُ : حَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، قَالَ :
إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ
لِلْأُمَّتِكَ ، قَالَ : فَلَمْ أَرْزُ أَنْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى ، وَيَحُطُّ عَنِّي
خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : يَا مُحَمَّدُ هُنَّ خَمْسُ
صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرُ فِعْلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً ،
وَمَنْ هُمْ بِحَسَنَةٍ ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ
لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ ، فَإِنْ عَمِلَهَا

كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ . فَتَزَلُّ حَتَّى اتَّهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأُخْبِرُهُ ،
فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لَأُمْتِكَ ، فَإِنِهَا لَا يُطِيقُ
ذَلِكَ ، فقال رسول الله (ﷺ) : « لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى
اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ » ورواه مسلم بهذا السياق .

وهكذا يتضح لنا سمو مكانة هذه الفريضة ، ومنزلتها الهامة عند
«الله» سبحانه وتعالى ، فقد استدعى الحبيب حبيبه ، وعرج به إلى
السّموات حتى كان في حضرته القدسية ليخاطبه مشافهة بهذا الأمر
الهام ، وبذلك الفريضة المحبوبة : « الصلاة » .

فمنزلة الصلاة من الدين كمنزلة الرأس من الجسد فلا دين لمن
لا صلاة له ..

روى الطبراني في الأوسط والصغير : عن ابن عمر (رضي الله
عنهما) ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : « لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ،
وَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا طَهْرَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ ، إِنَّمَا مَوْضِعُ
الصَّلَاةِ مِنَ الدِّينِ كَمَوْضِعِ الرَّأْسِ فِي الْجَسَدِ » .

وقد اهتم الكتاب والسنة بأمر الصلاة ، والتحذير من تركها .
أمر «الله» تعالى بها رسوله :

﴿ أَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ ﴾^(١)

كما جعلها أساسا أصيلا من أسس التقوى تأتى مرتبتها بعد الإيمان بالغيب مباشرة ، قال تعالى :

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾^(١)

ويجعلها النبى (ﷺ) الفاصل بين المسلم والكافر ، فيقول فيما رواه مسلم : « يَبْنِي الرَّجُلُ وَبَيْنَ الشَّرْكِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ » ، فليس غريبا أن يقول بعض الأئمة بكفر تاركها ، ويقول آخرون بفسقه ، ويخشى عليه ترك الإيمان .

قال عليه الصلاة والسلام : « فَأَطْلَقْتُ فَمَرَزْتُ عَلَى مَلِكٍ وَأَمَامَهُ آدَمِيٌّ ، وَبِيدِ الْمَلِكِ صَخْرَةٌ يَضْرِبُ بِهَا هَامَةَ الْآدَمِيِّ فَيَقَعُ دِمَاغُهُ جَانِبًا ، وَتَقَعُ الصَّخْرَةُ جَانِبًا ، وَلَمَّا سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ قِيلَ لَهُ : أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَأَمُّونَ عَنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ ، وَيُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ لِغَيْرِ مَوَاقِيتِهَا فَهُمْ يُعَذِّبُونَ بِهَا حَتَّى يَصِيرُوا إِلَى النَّارِ » .

إذن فللصلاة أهميتها البالغة . ومكانتها التى لا تطاوها مكانة فهى أول ما يسأل عنه العبد ، ويحاسب عليه يوم القيامة ، بل إنها الميزان الصحيح الذى توزن به سائر الأعمال فحيث كانت الصلاة صالحة

(١) البقرة : ٢ - ٣ .

ومقبولة صلح سائر العمل ، وحيث كانت غير صالحة فسد سائر العمل ،

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (١)

وتكف صاحبها عن الشرور وتسمو به حيث الرضا والكمال ، أما من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ، لأنه لم يستكمل عبادتها ولم تكن إقامته لها صالحة ومستقيمة ، وقد وضع الرسول (ﷺ) حقيقة الصلاة كميزان للأعمال ، عن عبد الله بن قرط (رضى الله عنه) : قال رسول الله (ﷺ) : «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ سَائِرُ عَمَلِهِ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ» رواه الطبراني في الأوسط .

وعلازمة الصلاة المقبولة أن يؤديها صاحبها متواضعا فيها لعظمة ربه الكبير ولم يستطل على أحد من خلق «الله» فهو ينتظم في صفوف الطائعين غير مصر على معصيته ، وإنما يحيا في ذكر «الله» ويتعاطف مع عباد «الله» ، ولقد جاء في حديث يرويه النبي (ﷺ) عن ربه سبحانه وتعالى : «إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِنْ تَوَاضَعٍ بِهَا لِعَظَمَتِي وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِي وَلَمْ يَثْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِي وَقَطَعَ النَّهَارَ فِي ذِكْرِي وَرَحِمَ الْمُسْكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْأَرْمَلَةَ وَرَحِمَ

(١) العنكبوت : ٤٥ .

المصَاب^(١)، وتتضح ثمرة الصلاة المقبولة بنهجا صاحبها عن الآثام ،
وتكفيرها للخطايا فبالصلاة تنزكى الروح ويتطهر القلب من غفلات
الهوى وأدران الخطايا قال (ﷺ) : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا عَلَى بَابِ
أَحَدِكُمْ يَغْتَسَلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَهَلْ يَبْقَى عَلَى بَدَنِهِ مِنْ
ذَرَنَةٍ شَيْءٍ ؟ قالوا : لَا ، قال : كَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو
« اللَّهُ » بِهِنَّ الْخَطَايَا »^(٢) ، فهي إذا طهارة للإنسان وبراءة من الذنوب
وإطفاء لما يَحْتَرِقُ به الإنسان من المعاصي ، يتضح هذا مما رواه ابن
مسعود : « تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ الصُّبْحَ غَسَلْتَهَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ
تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ الظُّهْرَ غَسَلْتَهَا ، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا
صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ غَسَلْتَهَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ
غَسَلْتَهَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعِشَاءَ غَسَلْتَهَا ثُمَّ تَنَامُونَ
فَلَا تُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا » ، ويروى عن سلمان الفارسي
أنه كان مع النبي (ﷺ) تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابساً فهزه
حتى تحات ورقه ، ثم قال : يَا سَلِيمَانُ أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا ؟
قلت : وَلِمَ تَفْعَلُهُ ؟ قال : إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ
صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ هَذِهِ الْوَرَقُ :
ثُمَّ تَلَا آيَةَ الْكَرِيمَةِ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ
الْأَيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾^(٣)

(١) رواه البزار . (٢) رواه البخاري ومسلم . (٣) هود : ١١٤ .

وللصلاة أثرها الإيجابي في حياة المؤمن فهي لقاء روحى خصب يقف فيه بين يدى الرحمن الرحيم في مناجاة عذبة يتلقى شحنات روحية تدخله في رحاب الرضا والقبول قال تعالى في الحديث القدسي : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي قَسَمَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ «الله» عز وجل : حَمَدَنِي عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، قَالَ «الله» : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ ، قَالَ «الله» : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ . قَالَ «الله» : هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » (١) .

والصلاة مع هذا كله نظافة للبدن والثوب والمكان ورياضة للجسم والروح والعقل ، فهي إذن قوة روحية وبدنية وخلقية .
أليست - بهذا كله - جديرة بأن تفرض من فوق سبع سماوات ؟
بلى إنها جديرة أن تفرض في الليلة المباركة - ليلة الإسراء والمعراج - فهي عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .

ومن ثمرات الصلاة التى يجنيها المؤمن : أن فيها متنفسا للمتعبين

(١) رواه مسلم .

والمنكوبين ، فإذا استعان الواحد منهم بالصبر والصلاة وجد «الله» تعالى معه ، وقد نادى «الله» تعالى عباده المؤمنين :

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾^(١)

وقال تعالى :

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ

﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ فَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾^(٢)

ولقد كان النبي (ﷺ) إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، فهي مرفأ الراحة والطمأنينة ، ومنزل الأمن والسكينة ، بها يتغلب الإنسان على نوازع الجبن والخور ومواقف الهوى والخمول ، ففيها مقاومة للجزع الذى يصيب بعض الناس وقت نزول الشر ، وعلاج للنفوس المتأعة للخير حين يكون :

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا

﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا

الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾^(٣)

والمصلى لابد أن يكون فى صلاته مستحضرا أحاسيس الخشوع ،

(١) البقرة : ١٥٣ . (٢) البقرة : ٤٥ - ٤٦ .

(٣) المعارج : ١٩ - ٢٣ .

لأنه إنما يقف بين يدي الحضرة الإلهية في دائرة الرحمة والقبض الإلهي فلا ينبغي له أن يكون من المرائين أو الساهين فإن هؤلاء قد توعدهم ربهم على عدم إخلاصهم في صلاتهم ، قال تعالى :

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ (١)

ويحث الإسلام مقيم الصلاة بالانتظام في سلك المجتمع وألا يعيش في عزلة عن الناس ، فأمر بأداء الصلاة في جماعة وجعلها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة بل أن الرسول (ﷺ) هم أن يحرق على قوم بيتهم لأنهم يتخلفون عن الجماعات .

روى مسلم عن ابن مسعود قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُتَادَى بِهِنَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ (ﷺ) سُنْنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَإِنَّكُمْ لَوْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْبُدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا أَى صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ إِلَّا مُتَافِقٌ

مَعْلُومُ التَّفَاق ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَتَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ
يَسْنِدَانِهِ لِمَرْضِيهِ حَتَّى يَقَامَ فِي الصَّفِّ ^(١).

ولقد كانت رحلة الإسراء والمعراج تخطط للمنهج الإلهي للحياة
الإسلامية في شتى أطوارها في الماضي والحاضر والمستقبل ، فالصلاة
إن لم تكن فرضت بعد إلا أنه قد رسم لها الصورة الهامة والضرورية
ووضح مغبة أمر الذي تتشاكل رأسه عن الصلاة ، فقد مر (ﷺ)
على قوم ترضح رؤوسهم بالصخر ، وكلما رضخت عادت كما كانت
لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، فقال : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ :
هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَكَافَلُ رُءُوسُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ ، بَلْ إِنَّهُ قَدْ أَدَّى
الصَّلَاةَ عَلَى كَيْفِيَةٍ خَاصَةٍ قَبْلَ أَنْ تَفْرُضَ إِمَامًا بِالنَّبِيِّينَ ، وَفِي ذَلِكَ
مَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ وَعَظَمَةِ الرَّسُولِ (ﷺ) ، فَفِي رِوَايَةِ
ابْنِ مَسْعُودٍ : ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَعَرَفْتُ النَّبِيَّ مَا بَيْنَ قَائِمٍ
وَرَاكِعٍ وَسَاجِدٍ ، ثُمَّ أَدْنَى مُؤَذِّنٌ فَأَقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَقُمْنَا صُفُوفًا
نَنْتَظِرُ مَنْ يُؤْتِنَا ، فَأَخَذَ يَدَيَّ جِبْرِيلُ فَقَدَّمَنِي فَصَلَّيْتُ بِهِمْ .




وفي رواية أخرى أَمَامَةً عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ : ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَتَدَاعَوْا
حَتَّى قَدَّمُوا مُحَمَّدًا (ﷺ) .

إذن فمكانة هذه الفريضة مكانة جليلة فهي معراج إلى «الله» يعبر
بها المؤمن الحدود الدنيا ويستشرف في سمو روحى الأجواء الإلهية

(١) رواه مسلم .

ويجتاز طبقات البعد عن «الله» فيقترب من رحابه ويأنس في مرافق الرحمة والسلام .

ويقول الإمام القشيري : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق (رضي الله عنه) يقول : إن نبينا (عليه السلام) أتى للأمة بالمعراج على التحقيق فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج ، وقد كان المعراج له (عليه السلام) ثلاث منازل من الحرم إلى المسجد الأقصى ، ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى ، فكذا لك لنا الصلاة ثلاث منازل القيام ثم الركوع ثم السجود وهو نهاية القرب ، قال الله تعالى :

﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾   ﴿١٩﴾  (١)

فإذا ما أهلت أيام هذه الذكرى ناضرة باهرة فعلى المسلمين أن يعيشوا ساعاتها البيضاء متصلين بحبال «الله» ، ورافعين شعار التوحيد ومقيمين الصلاة ، وليكن لهم من طاقات هذه الذكرى وأنماط الجهاد فيها ما يدفعهم إلى استخلاص بيت المقدس الذي انتهت إليه رحلة الإسراء وبدأ منه المعراج وصلّى فيه النبي (ﷺ) بالأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام .

العطاء الإلهي

وكان عطاء «الله» تعالى لرسوله (ﷺ) في هذه الرحلة المباركة على حسب كرم «الله» العزيز الوهاب ، وعلى حسب عظمته وحكمته ، فكان عطاء كثيرا وجزيلا ، بعد فترة أودى فيها الرسول (ﷺ) فتحمل ، وصبر صبرا جميلا ، إنه عطاء من نوع فريد لا مثيل له ..

وفي لقاء الرسول (ﷺ) بالأنبياء ، أثنوا على ربهم ، فقال إبراهيم عليه السلام : الحمد لله الذي اتخذني خليلاً ، وأعطاني ملكاً عظيماً ، وجعلني أمة يؤتم بي ، وألقذني من النار ، وجعلها على برداً وسلاماً ، ثم إن موسى (عليه السلام) أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي كلمني تكليماً ، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي وجعل من أمتي قوما يهتدون بالحق وبه يعدلون ، ثم إن داود (عليه السلام) أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً ، وعلمني الزبور وألآن لي الحديد وسخر لي الجبال يسبحن والطير وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب ، ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي سخر لي الرياح وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقُدور راسيات ، وعلمني منطق الطير وأتاني من كل شيء فضلاً وسخر لي جنود

الشَّيَاطِينَ وَالْإِنْسَ وَالطَّيْرَ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ
وَأَتَانِي مُلْكًا عَظِيمًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي وَجَعَلَ لِي مُلْكًا طَيِّبًا
لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ ؛ ثُمَّ إِنْ عَيْسَى (عليه السلام) أَتْنِي عَلَى رَبِّهِ عِزٌّ وَجَل
فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي كَلِمَتَهُ ؛ وَجَعَلَ مَتَلِي كَمَتَلِ آدَمَ .
خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَعَلَّمَنِي الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ؛ وَجَعَلَنِي أَمْخَلَقَ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَلْفُخُ
فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَنِي أَبْرِيءُ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَأَخِي
الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ؛ وَرَفَعَنِي وَطَهَّرَنِي وَأَعَادَنِي وَأُمِّي مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ . فَلَمْ يَجْعَلْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْنَا سَبِيلًا ، ثُمَّ إِنْ مُحَمَّدًا (ﷺ) أَتْنِي
عَلَى رَبِّهِ عِزٌّ وَجَل فَقَالَ : « كَلِّكُمْ أَتْنِي عَلَى رَبِّهِ وَإِنِّي مُثْنٍ عَلَى
رَبِّي فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ؛ وَكَافَّةً لِلنَّاسِ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْفُرْقَانَ فِيهِ بَيِّنَاتٌ لِكُلِّ شَيْءٍ وَجَعَلَ أُمَّتِي
خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَجَعَلَ أُمَّتِي أُمَّةً وَسَطًا وَجَعَلَ أُمَّتِي هُمْ
الْأَوَّلِينَ وَهُمْ الْآخِرِينَ وَشَرَحَ لِي صَدْرِي وَوَضَعَ عَنِّي وَزْرِي وَرَفَعَ
لِي ذِكْرِي وَجَعَلَنِي فَاتِحًا وَخَاتِمًا » فَقَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بِهِدَا
فَضَلَّكُمْ مُحَمَّدٌ (ﷺ) .

. وَإِذَا تَبِعْنَا هَذَا الْعَطَاءَ الْإِلَهِيَّ الْغَامِرَ : نَخْلُصُ مِنْهُ بِنَتَائِجِ هَامَةِ
يَجِبُ الْوَقُوفُ عِنْدَهَا ؛ وَالتَّأْسِي بِالرَّسُولِ (ﷺ) فِيهَا :

أَوَّلًا : يُوَجِّهُ « اللَّهُ » تَعَالَى رَسُولَهُ (ﷺ) عَقِبَ كُلِّ فَضْلٍ أَفَاءَهُ عَلَيْهِ

بالتوجه إليه شكرا لنعمه وتثبيتا لقلبه الشريف، فبعد أن كرمه بالإسراء والمعراج جاء التوجه بعد ذلك بالهجرة ثم ، بمراحل الجهاد وبعد أن أتاه السبع المثاني والقرآن العظيم وأمره بالجهر بالدعوة جاء في آخر السورة بالتوحيد الكريم :

﴿مِنَ السَّاجِدِينَ ١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ١٩ ﴿١﴾

وبعد أن ساق له عطاءه بالشهادة والبشارة والإنذار والدعوة إلى «الله» في قوله تعالى :

﴿يَتْلُوهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٤٥﴾ ﴿٢﴾

جاء عقب هذا العطاء ووجهه إلى التوكل على «الله» في قوله تعالى :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ٣﴾ ﴿٣﴾

وفي سورة الضحى بعد أن ساق «الله» آلاءه ونعماءه جاء في آخر

السورة بقوله :

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١﴾ ﴿٤﴾

وفي سورة الانشراح يذكر بعد تعداد النعم قوله :

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ٨﴾ ﴿٥﴾

وفي سورة الكوثر يذكر بعد عطائه لرسول الله (ﷺ) قوله :

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ٢ إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ٣﴾ ﴿٦﴾

(١) الحجر : ٩٨ ، ٩٩ . (٢) الأحزاب : ٤٥ . (٣) الأحزاب : ٣ .

(٤) الضحى : ١١ . (٥) الانشراح : ٧ ، ٨ . (٦) الكوثر : ٢ ، ٣ .

وفي سورة النصر بعد أن يذكر ما مَنَّ عليه بالنصر والفتح يوجهه بقوله :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾^(١)

وهذا المنهج الذى اتبعه «الله» مع رسوله (ﷺ) إنما يشكل تواصلا بينهما ، واستمرارا فى الإلحاح من «الله» وفى العبادة من الرسول (ﷺ) وهذا هو شأن الحبيب مع حبيبه .

ثانيا : تتمثل الأسوة الحسنة للمؤمنين برسولهم (ﷺ) فهو مع مكانته العظيمة ، ومع غفران «الله» له لما تقدم من ذنبه وما تأخر يواصل العبادة شكرا «لله» تعالى فيقوم الليل متهجدا راکعا ساجدا حتى تتورم قدماه ، وتفيض عيناه بالدموع ، حتى يسمع لصدره أزيزا كأزيز المرجل من البكاء ، والخشية من «الله» ، فتقول له السيدة عائشة (رضى الله عنها) : أَتَفْعَلُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ «الله» لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَيَجِيبُهَا قَائِلًا : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟!

وما أسمى هذه القدوة به إذا ، وما أكرمها .. ولقد أمرنا «الله» تعالى أن نتأسى به فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾^(٢)

(٢) الأحزاب : ٢١ .

(١) النصر : ٣ .

ولقد مَنْ «الله» تعالى على المؤمنين برسوله (ﷺ) الذى تمثلت فيه
الأسوة الحسنة قولاً وعملاً ، ووجه سبحانه الناس إلى أسس السعادة
التي جاء بها رسوله (ﷺ) ، وأنها تمثلت في تزكية نفوسهم وتطهيرها
من كل رجس أو رذيلة ، تدنس حياتهم كما تمثلت كذلك فيما جاء
به الوحي الإلهي في الكتاب والسنة ، فالأسوة الحسنة إذن تمثلت في
جانبيين :

الجانب الأول : هو الجانب السلوكي التطبيقي الذى شاهدوا فيه
حياة رسولهم (ﷺ) ، وما يؤديه من أعمال ، ومجاهدته في تزكية
نفوسهم وتطهير بيئتهم .

والجانب الثاني : جانب التعليم وهو الجانب النظري الذى يحضهم
فيه على اتباع وحيه من الكتاب والحكمة ، ويعلمهم إياه ، قال
تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٦٤)

الهجرة في سبيل الله

وضح «الله» حال طائفة آثرت الهوان على الهجرة في سبيل «الله» ، فاستكانوا للظلم الذى يقع عليهم ، فوضح نهايتهم الأليمة ، وعاقبتهم الوحيمة حيث رضوا بالهوان والإقامة بين الكفار الذين يصدونهم عن سبيل الله ثم استنتج الآيات أصحاب الأعذار الصحيحة من هذا الوعيد في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ
جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝١٨
فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝١٩﴾^(١)

ولما كانت الهجرة في سبيل «الله» منطلقا للنفوس المؤمنة ، ومتنفسا لها ، تتمتع في الهجرة بحريتها الإنسانية ، وكرامتها الآدمية وأداء واجبات دينها دون اعتداء أو صد عنه ، لما كانت الهجرة طريقا لهذا

كله فقد وعد «الله» تعالى من يهاجر في سبيله أن يكون في ضمان «الله» وأمانه ، وفي يسر في كل طرقة ، وسعة في عيشه :
﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾^(١)
يجد مهاجرا وطريقا يراغم بسلوكه قومه ، ومتحولا من الرغام وهو التراب . أو مكانا للهجرة ومأوى للسكنى والحياة الطيبة الآمنة يجد فيه الخير الكثير والسعة في الرزق ، وإنما تكون الهجرة خالصة في سبيل «الله» سبحانه ، إذا تمحصت نية المهاجر في سبيل الحق وخلصت في سبيل «الله» تعالى ، بإقامة دينه ونصرته وإظهاره على الدين كله .

روى البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال :
سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ» وَرَسُولُهُ فَهَاجِرُهُ إِلَى اللَّهِ» وَرَسُولُهُ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَاجِرُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١).

وقد روى أن ضمرة بن العيص وقيل : جندب بن ضمرة كان من المستضعفين وكان مريضا فلما سمع ما أنزل «الله» في الهجرة ، قال :
أخرجوني ، فهبئ له فراش ثم وضع عليه وخرج به فمات في الطريق بالتنعيم - وهو موضع بمكة - فأُنزل «الله» فيه :

(١) النساء : ١٠٠ . (٢) رواه البخارى .

﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١)

وقد قسم العلماء الذهاب في الأرض قسمين : هربا ، وطلبا .

فالأول ينقسم إلى ستة أقسام :

أولا : الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلى دار السلام ، وكانت فرضا في أيام النبي (ﷺ) ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي (ﷺ) حيث كان .

ثانيا : الخروج من أرض البدعة يقول مالك : لَا يَجُلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُقِيمَ بِأَرْضٍ يُسَبِّبُ فِيهَا السَّلْفُ ، وقال ابن العربي : هَذَا صَحِيحٌ ، فَإِنَّ الْمُنْكَرَ إِذَا لَمْ تُقَدِّرْ أَنْ تُغَيِّرَهُ قُزْلٌ عَنْهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيهِ ﴾

ءَايَلُنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ (٢)

ثالثا : الخروج من أرض غلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم .

رابعا : الفرار من الأذية في البدن ، ومن فعل ذلك إبراهيم (عليه

(٢) الأنعام : ٦٨ .

(١) النساء : ١٠٠ .

السلام) فإنه لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾^(١)
وقال مخبرا عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾^(٢)

خامسا : خوف المرض في البلاد الوخمة والخروج منها ، وقد استثنى
من ذلك الخروج من الطاعون فمنع «الله» منه بالحديث الصحيح ،
روى أبو داود بسنده عن عبد الرحمن بن عوف قال : سمعت رسول
الله (ﷺ) يقول : إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا
وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»^(٣).

سادسا : الفرار خوف الأذية في المال فإن حرمة مال المسلم كحرمة
دمه . وأما قسم الطلب ، فمنه طلب الدين ، ومنه طلب الدنيا .

فطلب الدين : كالسفر للعبرة كما جاء في قوله تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٤)

وسفر الحج والسفر للجهاد أو المعاش أو التجارة والكسب الزائد على
القوت قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ

تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٥) أى التجارة .

(١) العنكبوت : ٢٦ . (٢) القصص : ٢١ . (٣) رواه البخارى .

(٤) يوسف : ١٠٩ . (٥) البقرة : ١٩٨ .

وكالسفر في طلب العلم أو قصد البقاع الشريفة المكرمة ، روى البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال : «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(١) ومثل ذلك : المرابطة على الثغور للدفاع عنها ، والسفر لزيارة الإخوان في «الله» قال رسول الله (ﷺ) : «رَأَى رَجُلٌ أَحْمًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ فَأَرْصَدَهُ «الله» مَلَكًا عَلَى مَدْرَجَتِهِ - أَى أَقْعَدَهُ عَلَى طَرِيقِهِ يَتَرَقَّبُ - فقال : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ فقال : أُرِيدُ أَحْمًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، قال : هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرْتُئِبُهَا عَلَيْهِ - أَى تُصْلِحُهَا - قال : لَا غَيْرَ أَلَى أُخْبِتُهُ فِي «الله» عَزَّ وَجَلَّ قال : فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ «الله» قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أُخْبِتُهُ فِيهِ»^(٢) وكما وعد «الله» تعالى المهاجر باليسر والسعة فقد تكفل سبحانه بأجر عظيم له إن مات ولو بعد مجاوزته الموضع الذى كان منه حتى وإن لم يتعرض لعناء السفر أو وعناء الطريق ، فإن نيته كافية في حصول المثوبة والأجر ، وقد أكد «الله» وجوب الثواب وثبوته ، و «الله» سبحانه وتعالى أن يوجب على نفسه ما شاء ، وليس لغيره أن يوجب شيئاً ما عليه تعالى «الله» عن ذلك علواً كبيراً :

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣)

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) رواه مسلم . (٣) النساء : ١٠٠ .

الهجرة في ضوء القرآن والسنة

وقد رغب «الله» تعالى المسلمين في الهجرة ، مبينا لهم نتائجها وثمراتها ، وبأنهم لا ينبغي أن يضيعوا بها ، أو تذهب بهم الظنون مذاهب شتى ، لأن «الله» الذى يهاجرون إليه ، وفى سبيله هو القادر على كل شيء ، ولسوف يجدون أماكن كثيرة تصلح لهجرتهم فيها بسطة فى الرزق وسعة :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾^(١)

كما بين «الله» سبحانه أن من يخرج من بيته مهاجرا بنية صادقة إلى «الله» ورسوله ثم يدرکه الموت أثناء هجرته فقد وقع أجره على «الله» ، وحصل له الثواب الكامل ، وروى عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس أنه ضمرة بن العيص ، روى عن سعيد بن جبیر أنه العيص ابن ضمرة ، كان مريضا ، فلما سمع قول الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُم مِّلَّتِيكُ

ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾^(٢)

قال : أخرجوني ، وخرج مهاجرا ، حتى مات في الطريق ، فنزل :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ
فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١)

والوعيد السابق لمن لم يهاجر ، إنما هو لغير المستضعفين ، أما بالنسبة
للمستضعفين فقد استثناهم «الله» من هذا الوعيد في قوله تعالى :

﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ (١٨)
فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا ﴾ (١٩)

ووعد «الله» تعالى للمهاجرين في سبيله بأن يسهل لهم سبل الحياة
الطيبة الكريمة ، هذا الوعد خاص بمن تمحصت نية هجرته لمرضاة
«الله» ، وإقامة دينه ، عن عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) ،
سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ
أَمْرٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَّكِفُهَا
فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» ، وفي بعض الروايات زيادة : (فَمَنْ
كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى «الله» وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى «الله» وَرَسُولِهِ ...) وكما

(٢) النساء : ٩٨ ، ٩٩ .

(١) النساء : ١٠٠ .

تناولت الآيات والأحاديث أهمية الإخلاص في الهجرة تناولت كذلك بيان ثمراتها وهي أن «الله» مع المهاجرين ، وأن لهم مغفرة ورحمة جزاء صبرهم وتحملهم وجهادهم :

﴿ ثُمَّ آتَى رَبَّكَ

لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا

وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)

وبالهجرة تحول الولاء من الحسب والنسب والأسرة والقبيلة كما كان في مكة إلى الإيمان بالهجرة «الله» ولرسوله : ﴿ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَهُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ (٢)

وهناك نوع من الهجرة ، بينته السنة الشريفة ، هو الهجرة الباطنة ، عن عبد الله بن عمرو عن النبي (ﷺ) قال : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (٣) ، فالهجرة إذا نوعان :

هجرة ظاهرة : وهي الفرار بالدين من الفتن ، وهجرة باطنة : وهي ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشیطان ، فليس لواحد من المهاجرين أن يتكل على هجرته ، حتى يتمثل أوامر الشرع

(١) النحل : ١١٠ . (٢) الأنفال : ٧٢ . (٣) رواه البخاري .

ونواهيه ، وليس لمن لم يدرك الهجرة أن يضيق بفواتها ، فإنه يمكنه أن يحصل حقيقة الهجرة وثوابها بأن يهجر ما نهى «الله» عنه . بعد هذا نتجه إلى الهجرة النبوية التي كانت تمثل قمة المعاني السامية في إخلاص النية لله ، ولنبداً مع الرحلة منذ إعلان الدعوة ولقاء الرسول ﷺ بالقبائل .

لقاء الرسول ﷺ بالقبائل

منذ السنة الرابعة لمبعث الرسول ﷺ ، وقد قام بإعلان الدعوة بعد أن مكث ثلاث سنوات يدعو مستخفياً ، قام عشر سنين بعد ذلك يلتقى بالناس ، ويوافيهم في المواسم والأسواق ، وينتظرهم على أبواب الطرق ، ويتبع الحاج في المنازل ، وفي المواسم بعكاظ ومجنة وذى الحجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه وهم الجنة ، وكان يسأل عن قبائلهم ، ويأتى إليهم داعياً إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، قائلهم : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا وَتَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبُ وَتَذِلَّ لَكُمْ الْعَجَمُ ، وَإِذَا آمَنْتُمْ كُنْتُمْ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ» فكان منهم من رد بسخرية ، ومنهم من رد رداً قبيحاً كقبيلة بنى حنيفة أهل مسيلمة الكذاب ، ومنهم من طلب أن تكون لهم الرياسة من بعده كقبيلة بنى عامر ، فلما قال لهم : « إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » أعرضوا عن دعوته وانصرفوا . أما أبو لهب فكان وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب فيردون على رسول الله

(ﷺ) ردا قبيحا ويؤذونه قائلين : «أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك» فكان يدعوهم إلى «الله» بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتى هى أحسن ، ويقول : «اللَّهُمَّ لَوْ شِئْتَ لَمْ يَكُونُوا هَكَذَا» ومن بين هذه القبائل : بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وبنو نضر ، وبنو البكاء ، وكندة ، وكتب ، والحارث بن كعب ، وعذرة ، والحضارمة .

الأوس والخزرج

شاء «الله» تعالى أن يحق الحق ويطل الباطل ، وأن ينصر نبيه ، وينجز ما وعد فساقه إلى حى من الأنصار ، فجلس إليهم ودعاهم إلى «الله» ، وتلا عليهم من القرآن فآمنوا وصدقوا ، وآووا ونصروا .

ويقال : إن أول من أسلم ثمانية نفر .

وقيل : إن أول من أسلم من الأنصار أسعد بن زرارة وذكوان ابن عبد قيس عندما خرجا إلى مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة فقال لهما : قد شغلنا هذا المصلى عن كل شىء يرعى أنه رسول الله ، وكان أسعد بن زرارة وأبو الهيثم يتكلمان بالتوحيد فى طيبة ، فقال ذكوان ابن عبد قيس لأسعد بن زرارة حين سمع كلام عتبة : دونك هذا دينك ، فقاما إلى رسول الله (ﷺ) فعرض عليهما الإسلام فأسلما ثم رجعا إلى المدينة فأسلم أبو الهيثم .

وقيل : إن أول من أسلم رافع بن مالك الزرق ومعاذ بن عفراء حينما خرجا معتمرين فذكر لهما أمر رسول الله (ﷺ) فأثياه فعرض عليهما الإسلام فأسلما وقدا المدينة ، وكان أول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بنى زريق .

وقيل : إن رسول الله (ﷺ) خرج من مكة فمر على ثمانية نفر من أهل يثرب فعرض عليهم الإسلام فأسلموا ، وقال لهم رسول الله (ﷺ) : **تَمْنَعُونَ لِي ظَهْرِي حَتَّى أُبْلَغَ رِسَالَةَ رَبِّي** ، فطلبوا منه أن يدعهم حتى يرجعوا إلى عشائهم لعل «الله» يصلح ذات بينهم ، وضربوا معه موعدا في موسم العام المقبل .

ويقال : إن رسول الله (ﷺ) خرج في الموسم الذي التقى فيه بالنفر الستة من الأنصار ، فقال لهم : **أحلفاء يهود ؟** قالوا : نعم ، فدعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ، وهم :
١ - أسعد بن زرارة .

٢ - عوف بن الحارث بن عفراء ، وهما من بنى النجار .

٣ - رافع بن مالك من بنى زريق .

٤ - قطبة بن عامر بن حديدة من بنى سلمة .

٥ - عقبة بن عامر بن نائىء من بنى حرام .

٦ - جابر بن عبد الله بن رئاب من بنى عبيد بن عدى بن سلمة .

وهذا ما نرجحه ، فقد روى أنه لم يكن قبلهم أحد ، وقال محمد

ابن عمر : هذا عندنا أثبت ما سمعنا منهم ، وهو المجتمع عليه وكان ذلك في السنة الحادية عشرة للبعثة ، وقد كان النزاع مستمرا بين الأوس والخزرج ، وكانت الحروب مشتتة بينهم لا يهدأ لهم بال ، وبجوارهم يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، وكثيرا ما كان اليهود يذكرون أن نبيا مبعوثا الآن قد أظلم زمانه ، وكانوا يقولون للخزرج إذا اختلفوا معهم : إن نبيا مبعوثا الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما دعا رسول الله (ﷺ) هؤلاء النفر إلى «الله» فنظر كل منهم إلى صاحبه قائلا : و«الله» إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه .

وسارعوا بإجابة الدعوة إلى الإسلام ، وقالوا : «إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا - وَهُمْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ - وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ «الله» بِكَ ، وَأَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلَ أَعَزَّ مِنْكَ» وحين عاد هؤلاء إلى قومهم كانوا دعاة مخلصين للإسلام ، فما بقيت دار من دورهم إلا وعقت بنفحات الإسلام ، وسيرة الرسول (ﷺ) .

بيعة العقبة الأولى

تمت بيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة للبعثة ، وسميت بهذا الاسم ، لأنها وقعت عند العقبة ، وقد لقي عندها الرسول (ﷺ) اثني عشر رجلا ، اثنان من الأوس وهما : أبو الهيثم بن التيمان ، وعويم ابن ساعدة من بني عمرو بن عوف ، وعشرة من الخزرج وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث من بني النجار . وذكوان بن عبد قيس ، ورافع بن مالك من بني زريق ، وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن من بني عوف بن الخزرج ، وعباس بن عباد بن نضلة من بني عامر بن عوف . وعقبة ابن عامر بن نائل من بني سلمة ، وقطبة بن عامر بن حديدة من بني سواد . وقد أسلم هؤلاء جميعا ، وبايعوا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء ، فإن مبادئ هذه البيعة تتفق مع مبادئ بيعة النساء التي جاءت في سورة الممتحنة قال «الله» تعالى :

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَيَايَعُهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)

وفي الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم ، عن عبادة ابن الصامت : بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ الْأُولَى : «أَنْ لَا نُشْرِكَ بِـ «اللَّهِ» شَيْئًا ، وَلَا نَسْرِقَ وَلَا نَزْنِيَ ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا وَلَا نَأْتِيَ بِيَهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا وَلَا نَعْصِيهِ فِي مَعْرُوفٍ ، قَالَ ، فَإِنْ وَقِفْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ غَشِيتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخِذْتُمْ بِحَدِّهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَإِنْ سَتَرْتُمْ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَأَمْرُكُمْ إِلَى «اللَّهِ» إِنْ شَاءَ عَذَّبَ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ»^(١).

وقد بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير العبدري ليقرئهم القرآن ويشرح لهم تعاليم الإسلام .. وكان لهذه البيعة أثرها الهام ، وكان لمصعب بن عمير أثره الجليل بما بثه من مبادئ الدين وسماحته ، ويسره ، وما اشتملت عليه تعاليمه من فضائل تصلح بها الدنيا ، وتقوم على أساسها خير أمة أخرجت للناس ، لذا أقبل الناس على اعتناق الإسلام ، ولم تبق دار إلا وأشرق فيها نور الإسلام .. وعندما عاد مصعب بن عمير في موسم الحج إلى مكة ، بعد أن مكث عاما بالمدينة أخبر رسول الله ﷺ بخبر المسلمين هناك وإقبال الناس على الدين ، وأنهم سيأتون في موسم الحج إن شاء «الله» ...

(١) رواه البخارى ومسلم .

بيعة العقبة الثانية

تمت بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة للبعثة ، حيث قدم ثلاثة وسبعون شخصا ومعهم امرأتان إلى مكة ؛ ليدعوا رسول الله (ﷺ) للهجرة إليهم ، ووعدهم الرسول (ﷺ) منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول في الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة حيث المسجد اليوم ، وكان قد سبقهم إلى ذلك الموضع .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمدا إلى ما دعوتوه إليه ، ومحمد من أعز الناس في عيشته بمنعه - و«الله» - منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب ، واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحد فارتأوا رأيكم واثتمروا بينكم ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وإنا - و«الله» - لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله (ﷺ) ، قال : وتلا رسول الله (ﷺ) عليهم القرآن ثم دعاهم إلى «الله» ورغبهم في الإسلام ، وذكر

الذى اجتمعوا له ، فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثم قال : يا رسول الله بايعنا فنحن أهل الحلقة - أى السلاح - ورثناها كابرأ عن كابر ، ويقال : إن أبا الهيثم بن التيهان كان أول من تكلم فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله (ﷺ) وصدقه ، وقالوا : نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، ولغطوا فقال العباس بن عبد المطلب ، وهو آخذ بيد رسول الله (ﷺ) : أخفوا جرسكم فإن علينا عيوننا ، وقدموا ذوى أسنانكم فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإننا نخاف عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم، فتكلم البراء بن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ثم قال : ابسط يدك يا رسول الله : فكان أول من ضرب على يد رسول الله (ﷺ) البراء بن معرور ، وقيل أبو الهيثم وقيل أسعد بن زرارة ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله (ﷺ) : إِنَّ مُوسَى أَخَذَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا فَلَا يَجِدَنَّ مِنْكُمْ أَحَدًا فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤْخَذَ غَيْرُهُ ، فَإِنَّمَا يَخْتَارُ لِي جَبْرِيلُ ، فَلَمَّا تَخَيَّرَهُمْ ، قَالَ لِلنَّبِإَاءِ : أَنْتُمْ كُفَلَاءٌ عَلَى غَيْرِكُمْ كَفَالَةَ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي . قالوا : نعم ، ثم انفضوا إلى رحالهم .

الهجرة

هجرة المسلمين :

بعد بيعة العقبة الثانية طابت نفس الرسول (ﷺ) ، خاصة بعد أن جعل « الله » له منعة وقوة . فلما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين شكوا المسلمون إلى رسول الله (ﷺ) ، واستأذنوه في الهجرة ، فقال : « قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ، أُرِيتُ سَبْعَةَ ذَاتٍ نَحْلُ بَيْنَ لَابَتَيْنِ - وهما الحرتان - وَلَوْ كَانَتِ السَّرَاةُ أَرْضَ نَحْلٍ وَسِبَاخٍ لَقُلْتُ هِيَ » ثم مكث أياما ثم خرج إلى أصحابه مسرورا ، فقال « قَدْ أُخْبِرْتُ بِدَارِ هِجْرَتِكُمْ ، وَهِيَ يَثْرِبُ ، فَمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ فَلْيَخْرُجْ إِلَيْهَا » ، فأخذ القوم يخرجون ذاهبين إلى هناك أفرادا وجماعات في سِرِّيَّةٍ تامة ، ونزلوا على الأنصار الذين آووا ونصروا . وهكذا خرج المسلمون جميعا حتى لم يبق منهم بمكة إلا رسول الله (ﷺ) وأبي بكر وعلى .. ومن بين من خرج من المسلمين جماعة جمعوا بين الحسينين ، ونالوا شرف المهاجرين وشرف الأنصار ، وهؤلاء هم : ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة ، والعباس بن عباد بن نضلة ، وزيايد بن لبيد ، وهؤلاء النفر من الأنصار ، كانوا قد بايعوا الرسول (ﷺ) في العقبة الثانية ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى الرسول

ﷺ بمكة حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة فهم مهاجرون أنصاريون .

وتمت هجرة جميع المسلمين في سيرة تامة ، إلا ما كان من عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) ، فيما رواه عنه المؤرخون ، فإنه قد هاجر علانية ، وتحدى قريشا ، قائلا : مَنْ أَرَادَ أَنْ تَكْلَهُ أُمُّهُ أَوْ يَتِّمَ وَلَدَهُ ، أَوْ تَرْمَلَ زَوْجَتَهُ فَلْيَلْقِنِي وَرَاءَ هَذَا الْوَادِي ، فما تبعه أحد .. وهاجر طلحة بن عبيد الله ، وصهيب بن سنان الرومي معا ، وكان لصهيب مال ، فأراد المشركون أن يقتلوه ويأخذوا ماله ، فما إن اقتربوا منه إلا قال لهم : قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي مِنْ أَرْمَاحِ رَجُلٍ ، وو«الله» لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ أَوْ يَمُوتُ مِنْكُمْ عَدَدٌ كَبِيرٌ ، فَاتْرَكُونِي وَشَأْنِي ، قالوا : فاترك مالك ، فألقى إليهم ما معه من مال ، ودلهم على ماله بمكة ليأخذوه ، فانصرفوا ، وفي حقه نزل قول «الله» تعالى :

﴿ وَمِنْ

النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ

رءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢٠٧) ^(١)

أما أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فقد استأذن في الهجرة فقال له رسول الله ﷺ : لَا تُعْجَلْ لَعَلَّ «الله» يَجْعَلَ لَكَ صَاحِبًا ، وأما

(١) البقرة : ٢٠٧ .

على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فقد بقى مع الرسول (ﷺ) بمكة . بل وبقى بعده ليقوم برد الودائع التى كانت عنده إلى أصحابها .

حَوْلَ أَسْبَابِ الْهَجْرَةِ

علمنا فيما سبق أن رسول الله (ﷺ) قد أذن للمسلمين بالهجرة بعد أن رأى أصحابه من أعدائهم أذى كثيرا ، فلما هاجروا نعى إلى علم المشركين خبر هجرتهم ، وعرفوا أنهم قد أصبحوا فى منعة وقوة ، فخافوا أن يلحق بهم رسول الله (ﷺ) ، ويكون معهم قوة هائلة يجابههم بها فلا يستطيعون أن يقاوموه ، وعندئذ يتطور الموقف من أزمة دينية إلى أزمة أخرى اقتصادية ، قد تؤدي إلى ضياع بضاعتهم ، وكساد تجارتهم ، لأن يثرب ذات موقع حيوى ، فهى تقع فى الطريق بين مكة والشام ، فرأوا أن هذه الدعوة وما تحمله من دين أصبحت تشكل خطرا جسيما على عقيدتهم وعلى تجارتهم ، وعلى مستقبل حياتهم كله ، فنهضوا ليعدوا للأمر عدته ، واجتمعوا فى دار الندوة وجمعوا أهل الحصى والرأى فيهم ، ليدلى كل واحد منهم برأيه ، وحضر إبليس معهم فى صورة شيخ نجدى ، وأشار كل واحد من القوم برأى :

فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا ، وننفيه إلى مكان قاص حتى

- ١٤٢ -

نستريح منه ، ولكن هذا الرأى لم يلق قبولا ، لأنهم يرون أنه إذا خرج التّفّ حوله الناس ، وتألفت به القلوب لما له من عذوبة في الحديث وجمال في المنطق .

فقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يموت كما مات من قبله من الشعراء .

ولكن هذا الرأى أيضا لم يصادف قبولا كذلك ، إذ أنهم يعلمون : إذا حبسوه فسوف يظهر أمره وتترامى أخباره لأصحابه وهنا يتواثبون عليهم ليخلصوه منهم ويغلبوهم .

ثم قال أبو جهل بن هشام : و «الله» إن لى فيكم رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما نهذا جلدا ثم نعطيه سيفا صارما فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يدري بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع ، وهنا وقع هذا القول من إبليس موقع القبول فيقول : «الله» در الفتى .

ولكن هذا المكر وتلك المؤامرة ما كانت لتخفى على رسول الله (ﷺ) ؛ فلقد أوحى «الله» إليه بما دبروه وأمره بالهجرة قال «الله» تعالى :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(١)

ويمكننا إبراز الأسباب التي كانت من أجلها الهجرة ، وتلخيصها فيما
يأتي :

أولاً : الانتقال بالدعوة الإسلامية إلى بقعة خصبة تؤتي ثمارها
وينتفع بها الناس .

ثانياً : شدة إيذاء المشركين للمسلمين ، خاصة بعد وفاة أبي
طالب وخديجة .

ثالثاً : إخلاص الأوس والخزرج لرسول الله (ﷺ) ؛ وقد ظهر
ذلك من بيعتي العقبة الأولى والثانية .

رابعاً : محاولة المشركين الغدر برسول الله (ﷺ) .

هجرة رسول الله (ﷺ) وأبى بكر

لما دبر الأعداء مؤامرتهم ، وحاكوا في الخفاء خيوطها ، أراد «الله» تعالى أن يحبط ظلمهم ويرد كيدهم في نحورهم ، فأرسل جبريل (عليه السلام) إلى رسول الله (ﷺ) فأخبره الخبر ، وأمره ألا ينাম في مضجعه تلك الليلة .

وهكذا تولّى ربُّ العزة سبحانه رعايته لرسوله (ﷺ) ، وكشف له ربه كل ما دبّروه من غدر ومكيدة ، وكل ما يسرون وما يعلنون :

﴿فَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنْ أَنْعَلُمْ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ^(١)

ونام على (رضى الله عنه) مكان رسول الله (ﷺ) ؛ وقال له النبي (ﷺ) : «لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ» وتسجى «على» ببردة رسول الله (ﷺ) ؛ فكان الأعداء إذا نظروا ، اعتقدوا أن رسول الله (ﷺ) لم يزل نائما ، حتى خرج من بينهم دون أن يشعروا به فقد أغشاهم «الله» :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا

وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ^(٢)

(٢) يس : ٩ .

(١) يس : ٧٦ .

وهكذا نجا «الله» تعالى رسوله (ﷺ) من كيد الكائدين

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٥٤) (١)

وانطلق رسول الله (ﷺ) بعد ذلك إلى أبي بكر الصديق (رضى الله تعالى عنه) ، فقال : «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ» .

فقال أبو بكر : فخذ - بأبي أنت وأمي - إحدى راحلتى هاتين ، فقال (ﷺ) : بالثمن ، وكان أبو بكر (رضى الله عنه) قد اشتراها بثمانمائة درهم ، فأخذ إحداها وهى القصواء ، وهناك قال قائل القوم : مَا تَنْتَظِرُونَ ؟ قالوا : محمداً ، قال : خَبِثُمْ وَخَسِرْتُمْ قَدْ - و«الله» - مَرَّ بِكُمْ وَذَرَّ عَلَى رُءُوسِكُمُ التُّرَابَ . قالوا : و«الله» مَا أَبْصَرْنَاهُ .

وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم ، وهؤلاء هم : أبو جهل ، والحكم بن أبى العاص ، وعقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، وأمّية بن خلف ، وابن الغيثلة ، وزمعة بن الأسود ، وطعيمة بن عدى وأبو لهب ، وأبى بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسألوا علياً عن الرسول (ﷺ) ، فقال : لَا عِلْمَ لِي بِهِ .

ومضى الرسول (ﷺ) فى هجرته المباركة مودعا مكة الحبيبة ، بكلماته المرفهات :

(١) آل عمران : ٥٤ .

التى قالها - عند خروجه (ﷺ) من مكة المكرمة - وهو ينظر إلى البيت :

«و «الله» إِنَّكَ لِأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ ، وَإِنَّكَ لِأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ
«الله» ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ » وهذا الحديث رواه الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن الحمراء يرفعه .

والبعض يقول : عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وبهذا الحديث احتج من يفضل مكة على المدينة .. وكذلك حديث عبد الله بن الزبير - مرفوعا - أن الصلاة في المسجد الحرام خير من مائة ألف صلاة فيما سواه .

فإذا كانت الأعمال تبعا للصلاة ، فكل حسنة تعمل في الحرم فهي بمائة ألف حسنة .

وقد روى هذا من طريق ابن عباس عن رسول الله (ﷺ) قال :
« مَنْ حَجَّ مَا شِئْنَا كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ سَبْعُمِائَةِ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ الْحَرَمِ ، قِيلَ : وَمَا حَسَنَاتُ الْحَرَمِ ؟ قَالَ : الْحَسَنَةُ فِيهِ بِمِائَةِ أَلْفِ حَسَنَةٍ ^(١) » .

وقد أُذِنَ لرسول الله (ﷺ) بالهجرة ، بقول «الله» تعالى :

(١) رواه البزار .

﴿ وَقُلْ رَبِّ

أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ
لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾^(١)

قال الحسن والضحاك : المراد : دخوله المدينة المنورة ، وخروجه من مكة المكرمة ، وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تأمروا على قتله (صلوات الله وسلامه عليه) .

والرأى الآخر بمعنى : أدخلني قبري مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق أى عند البعث . وذكر الحاكم أن خروجه (ﷺ) من مكة كان بعد بيعة العقبة بثلاثة أشهر ، أو قريبا منها .

وجزم ابن إسحاق بأنه خرج أول يوم من ربيع الأول وقدم المدينة المنورة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول وقال عبد الله بن زيد ، وأبو هريرة (رضي الله عنهما) ، عن النبي (ﷺ) : « لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأًا مِنَ الْأَنْصَارِ » وقال أبو موسى عن النبي (ﷺ) : « رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَحْلٌ ، فَذَهَبَ وَهَلَى^(٢) إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرَ^(٣) فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يُثْرِبُ ، وَإِنَّمَا قَالَ «يُثْرِبُ» ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَسْمِيَهَا «طَبِيبَةً» ، وَمِنْ

(١) الإِسرَاءُ : ٨٠ . (٢) وهلى : أى ظنى .

(٣) هَجَرَ : بفتح الهاء والجيم بلد معروف من البحرين .

حديث صهيب : رفعه : « أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ سَبْعَةً بَيْنَ ظَهْرَانِي حَرَّتَيْنِ فَإِمَّا أَنْ تُكُونَ هَجْرًا أَوْ يُثْرِبَ »^(١) .

ويعلم من هذا أن «الله» تعالى أطلع رسوله (ﷺ) على دار الهجرة ، وأراه إيها في الرؤيا ، وفي هذا إشارة إلى منزلة الهجرة والمهاجرين ، ومكانة المدينة المنورة وفضلها عند «الله» تعالى .

حَدِيثُ الْهَجْرَةِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

قال الإمام البخارى رحمه «الله» تعالى : حدثنا يحيى بن بُكير قال حدثنا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ ، قَالَ ابْنُ شَهَابٍ : فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، أَنَّ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) زَوْجَ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَتْ : لَمْ أَعْقِلْ أَبُورَى قَطُّ إِلَّا وَهِيَ يَدِينَانُ الدِّينَ ، وَلَمْ يَمِرْ عَلَيْنَا يَوْمَ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ الرَّسُولُ (ﷺ) طَرَفَى النَّهَارَ بَكْرَةً وَعَشِيَّةً^(٢) ، فَلَمَّا ابْتَدَأَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ حَتَّى بَلَغَ بَرْكًا^(٣) الْغِمَادِ فَلَقِيَهُ ابْنُ الدَّغْنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ^(٤) ، فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجَنِي قَوْمِي ، فَأُرِيدُ أَنْ أُسَبِّحَ فِي الْأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي ، قَالَ ابْنُ الدَّغْنَةِ : فَإِنْ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ

(١) رواه البيهقي . (٢) رواه البخارى .

(٣) بَرْكٌ : يفتح الباء وسكون الراء والغمد بكسر الغين : هو موضع على بعد خمس ليالٍ من مكة إلى جهة اليمن .

(٤) القارة : هى قبيلة مشهورة يضرب بهم المثل فى قوة الرمى .

لَا يُخْرِجُ وَلَا يُخْرِجُ إِنَّكَ : تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ ،
وَتَحْمِلُ الْكُلَّ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، فَأَنَا
لَكَ جَارٌ ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ .. فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ
الدَّغْنَةِ ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغْنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قَرِيشٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنْ
أَبَا بَكْرٍ لَا يُخْرِجُ مِثْلَهُ وَلَا يُخْرِجُ ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ
الْمَعْدُومَ ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَحْمِلُ الْكُلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ وَيُعِينُ عَلَى
نَوَائِبِ الْحَقِّ ؟ فَلَمْ تَكْذِبْ قَرِيشُ بِجَوَارِ ابْنِ الدَّغْنَةِ ، وَقَالُوا لَابْنِ
الدَّغْنَةِ : مَرَّ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ ، فَلْيَصِلْ فِيهَا ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ
وَلَا يُؤْذِنَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِهِ ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا
وَأَبْنَاءَنَا .

فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغْنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ
فِي دَارِهِ ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ ، ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي
بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ وَكَانَ يَصِلُ فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ،
فَيَتَقَدَّفُ^(١) عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَهُمْ يَعْجِبُونَ مِنْهُ ،
وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً^(٢) ، لَا يَمْلِكُ عَيْنِيهِ إِذَا
قَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قَرِيشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَرْسَلُوا إِلَى
ابْنِ الدَّغْنَةِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا : إِنَّا كُنَّا أَجْرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجَوَارِكَ عَلَى

(١) يتقدف : أى يزدهم من القذف وهو التدافع والسقوط ، وفي رواية .

تقصف : أى يزدهمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر .

(٢) بكاء : أى كثير البكاء .

أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فأنهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد عليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك^(١) ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .. قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر ، فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليّ ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإني أردّ إليك جوارك وأرضى بجوار «الله» عز وجل ، والنبى (ﷺ) يومئذ بمكة .

فقال النبى (ﷺ) للمسلمين : «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لاثين وهما الحزنان^(٢)» فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهّز أبو بكر قبل المدينة .

فقال له رسول الله (ﷺ) : «على رسلك^(٣) ؛ فإني أرجو أن يؤذن لي» ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال :

(١) نخفرك : أى نغدر بك .

(٢) الحرة : أرض حجارها سود .

(٣) على رسلك : أى على مهلك .

«نعم» ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله (ﷺ) ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده وَرَقَ السَّمَر وهو الحَبِطُ^(١) أربعة أشهر .

قال ابن شهاب : قال عروة : قالت عائشة : فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة ، قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله (ﷺ) مُتَقَنَّعًا^(٢) في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر : فِدَا لَهُ أَبِي وَأُمِّي ، و «الله» مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ ، قالت : فجاء رسول الله (ﷺ) ، فاستأذن ، فأذن له فدخل ، فقال النبي (ﷺ) لأبي بكر : «أُخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ» ، فقال أبو بكر : إِنْمَا هُمْ أَهْلُكَ - بِأبي أنت يا رسول الله - ، قال (ﷺ) : «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ» فقال أبو بكر : الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال رسول الله (ﷺ) : «نعم» ، قال أبو بكر : فَخُذْ - بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ ، قال رسول الله (ﷺ) : «بِالْثَّمَنِ» . قالت عائشة : فجهزناهما أَحْتَّ^(٣) الجهاز ، وصنعنا لهما سَفْرَةَ^(٤) في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها^(٥) فربطت به على فم الجراب - فبذلك سميت ذات النطاقين - وفي رواية ذات النطاقين .

(١) يقال عَنْ «السمر» شجرة أم الغيلان وقيل : كل ماله ظل ثخين وقيل : ورق الطلح ، والحِطُّ : هو ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشجر . (٢) مُتَقَنَّعًا : أى مغطيا رأسه . (٣) أَحْتَّ : أسرع .

(٤) أى زاد وأصلها في اللغة : الزاد الذى يجهز للمسافر ثم استعمل في الوعاء الذى يعمل فيه . (٥) النطاق : ما يشد به الوسط .

قالت : ثم لحق رسول الله (ﷺ) وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما في الغار عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِف^(١) لَقِن^(٢) فیدلخ^(٣) من عندهما بسحر ، فيصبح مع قریش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمرا يكتادان به حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر مَنَحَةً من غنم فَيَرِيحُهَا عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رُسُل^(٤) وهو لبن مَنَحَتَهُمَا وَرَضِيفَهُمَا^(٥) حتى يَنَعَقَ^(٦) بها عامر ابن فهيرة بَعْلَسَ يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ، واستأجر رسول الله (ﷺ) وأبو بكر رجلا من بنى الدليل وهو من بنى عَبد بن عدى هاديا خَرِيتَا^(٧) بالهداية قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قریش فأَمْنَاهُ فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غَارَ ثور بعد ثلاث ليالٍ براحتيهما صَبَحَ ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فَأَخَذَ بهم طريق السواحل^(٨) أ.هـ .

(١) ثَقِف : أى حاذق . (٢) لَقِن : سريع الفهم . (٣) يَدْلُخ : يخرج بسحر .
(٤) الرُّسُل : اللبن الطرى . (٥) رَضِيف : وهو اللبن الموضوف يوضع فيه الحجارة المحمأة بالشمس أو النار وتزول رخواوته . (٦) يَنَعَق : يصيح . (٧) الخريت : الماهر .
(٨) رواه البخارى في صحيحه .

فى الغار

خرج رسول الله (ﷺ) وأبو بكر إلى غار ثور ، ويقع جنوب مكة على بعد حوالى خمسة كيلو مترات ، وأدرك كفار قريش أنه فر من مكة ، فأعلنوا عن جائزة ثمانية قدرها مائة ناقة لمن يأتي به حيًّا أو ميتًا ، وتسابق الشبان من المشركين ، وألقت قريش بأقوى فتياتها بحثًا فى الطريق من مكة إلى المدينة ، كلٌّ يحاول الظفر بالجائزة ، حتى وصل بعضهم إلى الغار ، وأصبحوا يبحث لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأى الرسول (ﷺ) وصاحبه أبا بكر (رضى الله عنه) .

ولكن العناية الإلهية قامت بدورها الخارق للعادة ، وظهرت من المعجزات فى هذه الآونة ما يجعل العقل البشرى يسجد أمام عظمة الخالق البارئ سبحانه وتعالى .. ولقد ضربت العنكبوت على باب الغار ، ونسجت خيوطها وأقامت عُشَّها ، فلما وصلوا إليه . قال بعضهم : إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد ، فانصرفوا قال ابن سعد فى طبقاته الكبرى : أخبرنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عون بن عمرو القيسى أخو رياح القيسى ، حدثنا أبو مصعب المكي قال : أدركت زيد بن أرقم وأنس بن مالك والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون أن النبى (ﷺ) ليلة الغار ، أمر «الله» شجرة فنبتت فى وجهه فسترته ، وأمر «الله» العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته ، وأمر

«الله» حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار ، وأقبل فتیان قريش ، من كل بطن رجلٌ ؛ بأسيا فهم وعصيم وهراواتهم حتى إذا كانوا من النبی (ﷺ) قدر أربعين ذراعا نظر أولهم فرأى الحمامتين فرجع ، فقال له أصحابه : مالك لم تنظر في الغار ، قال : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد ، قال : فسمع النبي (ﷺ) قوله فعرف أن «الله» قد درأ عنه بهما ، وكانت لأبي بكر منيحة غنم يرعاها عامر بن فهيرة ، وكان يأتيهم بها ليلا ، فيحتلبون ، فإذا كان سحر؛ سرح مع الناس ، قالت عائشة : وجهزناهما أحثَّ الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به الجراب ، وقطعت أخرى فصيرته عصاما لقم القرية ، فبذلك سُميت ذات النطاقين . (أ.هـ . طبقات ابن سعد)

وهكذا مكث رسول الله (ﷺ) هو وصاحبه ثلاث ليال في الغار ، كان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر ، وخرج من الغار ليلة الإثنين ، لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول ، وقد صور العارف بالله الشيخ البوصيري - رحمه الله - لقاء الغار بقوله :

فَالصَّدُوقُ فِي الْغَارِ وَالصَّدِيقُ لَمْ يَرَمَا^(١)
وَهُمْ يَقُولُونَ : مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمٍ^(٢)

(١) بكسر الراء : أى لم يرحا .

(٢) بفتح الهمزة وكسر الراء : بمعنى أحد .

ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تُنْسَجْ ، وَلَمْ تُحْمَ
وَقَايَةُ « اللَّهِ » أُغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ
مِنَ الدَّرُوعِ . وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأَطْمِ (١)

فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْمَدِينَةِ

استأجر الصديق (رضى الله تعالى عنه) دليلاً هو عبد الله بن أريقط ،
ورغم أنه كان على دين الكفر إلا أنهما أماناه ، ومعهما عامر بن فهيرة
مولى أبى بكر ، وفي طريقهم مرُّوا بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت
تقعد بفناء الخيمة ، تسقى الناس وتطعمهم ، فسألوا ليشترى منها تمرًا
أو لحماً ، فلم يجدوا عندها شيئاً وقالت لهم : و « الله » لو كان عندنا
شئ ما أعوزكنا القرى ، فنظر رسول الله (ﷺ) إلى شاة فى كسر
الخيمة ، فقال : « مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ ؟ » قالت : هذه شاة خلفها
الجهد عن الغنم ، فقال : « هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ » .

قالت : هـى أجهد من ذلك .

قال : « أَتَأْذِنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا ؟ » .

قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى ، إن رأيت بها حلباً ؛ فدعا رسول

(١) بضم الهمزة والطاء : هـى الحصون .

الله (ﷺ) بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم «الله» ، وقال : «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهَا فِي شَاتِيهَا» . وهنا ظهرت معجزاته (صلوات الله وسلامه عليه) ، فإذا بالضرع يمتلئ لبنًا ، ويدرك الكثير ؛ فدعا بإناء لها يكفي الرهط فحلب فيه ، فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب (ﷺ) آخرهم ، ثم حلب فيه ثانيا ، وغادره عندها ..

وقد أخذوا طريقهم بعد ذلك في الرحلة ، ولما جاء زوجها أبو معبد ورأى اللبن عجب ، وقال : من أين لكم هذا والشاة عازبة ولا حلوبة في البيت ؟

قالت : لا و «الله» ، إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، قال : و «الله» إني لأراه صاحب قريش الذي يطلب .

صفيه لي يا أم معبد .

قالت : رأيث رجلاً ظاهر الوضأة متبجح الوجه حسن الخلق ... وظلت تصفه إلى أن قالت : فَهَوْ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدَرًا ، لَهُ رُقَقَاءُ يَحْفُونَ بِهِ ، إِذَا قَالَ اسْتَمِعُوا لِقَوْلِهِ ؛ وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ ..

قال : هذا و «الله» صاحب قريش الذي ذُكِرَ لنا من أمره ما ذُكِرَ ؛ ولو كنت وافقته يا أم معبد لالتصمت أن أصعبه ، ولأفعلنَّ

إن وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأصبح صوت بمكة عاليا بين السماء والأرض يسمعون ولا يرون صاحبه ، ينادى قائلا :

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ
رَفِيقَيْنِ خَلَا عَيْمَتِي أُمِّ مَعْبُدِ
هُمَا نَزَلَا بِالرُّوَاحِ وَأَزَلَّ بِهِ
فَأَقْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقُ مُحَمَّدِ
فَيَا قَصْرِي مَا رَوَى « اللَّهُ » عَنْكُمْ
بِهِ مِنْ فِعَالٍ لَا يُجَازَى وَوُودِ
سَلُّوا أَحْكَمَ عَنْ شَاتِيهَا وَإِنَائِيهَا
فَالْكُمْ ! إِنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ خَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ
لَهُ بِصَرِيحٍ ضَرَّةَ الشَّاةِ مُزِيدِ
فَعَادَرَهُ رَهْنًا لَدَيْهَا حَالِبِ
ثُدِرُ بِهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْدِ

وقد أجاب حسان بن ثابت على هذا بقوله :

لَقَدْ حَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نِيْهِم
وقدس مَنْ يَسْرِى إِلَيْهِمْ وَيَعْتَدِ
تَرْحَلُ عَنْ قَوْمٍ فَزَالَتْ عُقُولُهُمْ
وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِسُورٍ مُجَدِّدِ

وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسَلُّوا
 عَمَى وَهْدَاةَ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ
 نَبِيٍّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ
 وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
 فَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةً غَائِبِ
 فَتَصْدِيقُهَا فِي ضَحْوَةِ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ
 لَتَهْنَأَ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةَ جَدِهِ
 بِضُحَيْتِهِ، مَنْ يُسْعِدِ «اللَّهُ» يَسْعِدِ
 وَيُهِنُ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ قَتَاتِهِمْ
 وَمَقْعَدُهُمَا لِلْمُسْلِمِينَ بِمَرْصَدِ

وهذا الموقف مع أم معبد يعطينا صورة واضحة لما كانت عليه هذه الرحلة من عناية وتوفيق ، كما يوضح لنا أن الرعاية الإلهية قد حرصت خطى الرسول (ﷺ) في حله وترحاله ، وأن تلك المعجزة التي جرى اللبن بها على يديه ، إنما تدل على أن الخير قد انهمر من لا شيء ، وعن قريب سينهمر بصورة أكبر ، وينتشر النور بصورة أوسع ، وتعم الهداية كل الناس ، وتتحول الجهالة إلى علم والضلالة إلى هدى ، ويجيء نصر «اللَّهُ» والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا .

وها هم أولاء في رحلتهم المباركة يعرض لهم سراقه بن مالك بن

جعلهم على فرس له ، فدعا عليه رسول الله (ﷺ) ، فساخت فرسه فقال : يا هذان ادعوا لى الله ولكما ألا أعود ، فدعوا الله ، فعاد فساخت ، فقال : ادعوا لى الله ألا أعود ، قال : عرض عليهما الزاد ، فقالا : اكفنا نفسك ، فقال : قد كفيتهما ..

وهذه معجزة أخرى ، ترد كل من قصد الرسول (ﷺ) بشر ، وتحيط كيد أعدائه ، وترد كل فتانهم المتسابقين على الشر ؛ تردهم بالخزي والعار ، فلا يستطيعون أن يلحقوا به فى رحلته وهجرته .

وقد تجلّى وفاء أبى بكر للرسول (ﷺ) وحرصه على سلامته إذ كان يسبق الرسول (ﷺ) فى الدخول إلى الغار ليطمئن على سلامته من الهوام والحشرات ، ثم ينادى رسول الله (ﷺ) بعد ذلك ، كما كان يدفعه أيضا أثناء المسير ، حيث يسبقه مرة ويلحقه أخرى ، وعندما سأل رسول الله (ﷺ) عن ذلك قال :

يا رسول الله أذكر التردد فأسبقك ، وأذكر الطلب فأتبعك .

الفهرس

٨٧	استماع الجن للقرآن بوادي نخلة.....	٣	مقدمة.....
٩٢	الإسراء.....	٥	خصائص ومميزات السيرة النبوية ومصادرها
٩٧	المعراج.....	٩	عموم الرسالة وخلودها.....
٩٨	الرد على ما أثير من مزاعم.....		حاجة الإنسان إلى رسالة سيدنا
١٠٠	الغاية من هذه الرحلة.....	١٦	محمد (ﷺ).....
١٠٣	الحكمة في كونها إلى بيت المقدس.....		حول المرحلة الأولى من حياة
١٠٤	الجهاد في ضوء الرحلة المباركة.....	٢٣	الرسول (ﷺ).....
	فريضة الصلاة.. في ضوء الرحلة	٣٢	الرسول (ﷺ) في شبابه.....
١٠٥	المباركة.....	٣٤	نور ودعوة.....
١١٨	العطاء الإلهي.....	٣٦	شباب الطهر والنقاء.....
١٢٣	الهجرة في سبيل الله.....	٣٧	فضائل مثل.....
١٢٨	الهجرة في ضوء القرآن والسنة.....	٣٨	تجسار وأمانة.....
١٣١	لقاء الرسول (ﷺ) بالقبائل.....	٣٩	حول كيفية الوحي.....
١٣٢	الأوس والخزرج.....	٤٦	المرحلة السرية.....
١٣٥	بيعة العقبة الأولى.....	٥٣	الجهار بالدعوة.....
١٣٧	بيعة العقبة الثانية.....	٥٨	من خصائص البيت النبوي.....
١٣٩	الهجرة.....		أثر أمهات المؤمنين في نشر
١٤١	حول أسباب الهجرة.....	٦٦	السنن والأحكام.....
١٤٤	هجرة رسول الله (ﷺ) وأبي بكر.....	٧٠	مواقف فاصلة في طريق الدعوة.....
١٤٨	حديث الهجرة كما رواه البخاري.....	٨٠	موت السيدة خديجة، وأبي طالب.....
١٥٣	في الغار.....	٨٣	في الطائف.....
١٥٥	في الطريق إلى المدينة.....	٨٦	الرجوع من الطائف.....

رقم الإيداع ٩٤ / ٢٩٥١

الترقيم الدولي 2-0191-14-977 I.S.B.N



فى هذا الكتاب

دراسة تحليلية فى ضوء الكتاب والسنة لأشرف
سيرة فى الوجود إنها السيرة النبوية العطرة
ويتناول هذا الكتاب العهد المكى ويتبعه
بمشيئة الله تعالى دراسة أخرى للعهد المدنى
وتتميز هذه الدراسات بتوثيق الروايات
واستنباط الحكم والدروس .

والله ولى التوفيق

